Cat(AC)

وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٢٩

الأدب والثورة

تأليف

عبد الله نيازي

وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٢٩

هدية
المكتبة المركزية
لجامعة بغداد

الأدب والثورة

تأليف

عبد الله نيازي

956
Ir27
29-30
م٦

قاع شام بي ٥

سعيد

د. نازيك سابا

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية ـ بغداد
١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

مأساة الأديب في العراق

يتساءل البعض عن الادب في العراق ، اين هو ، ولماذا يسير الى الركود والانكماش وقد كان يحاول ان يشق له طريقا في الركام ؟ ... بل لماذا ازداد تضاؤلا خلال هذين العامين من الثورة ؟ هل كانت الاحداث أضخم من ان يعبر عنها بدراسة أو تحليل ، أم ان الاديب نفسه كان ضعيفاً متهالكا ليست له صفة من صفات القوة والعمق حتى ينفعل بها ويهضمها ويتمثلها في اعماقه ومن ثم يصوغها في ادب رائع وفن قوى ؟؟.

ثم اين هو الاديب العراقى ، وما سر تخلفه عن ادباء العرب بصورة خاصة والعالم بصورة عامة ؟.. وما سبب هذه الانعزالية التى تكاد تكون طابعه الخاص ؟. ولماذا ينكمش داخل نفسه هذا الانكماش الواضح وقد كان كل شيء فيه يدفعه الى العمل والنشاط ؟. ايعود السبب في ذلك الى القلق الذي يسيطر على هذا البلد كجزء من القلق الكبير الذي يسيطر على العالم ؟ ام يعود الى فقدان الطمأنينة والاستقرار وهيمنة الاضطراب على حياة الاديب الفكرية والنفسية ام ان السبب يعود الى انعدام وسائل النشر وتيبس الفم على كلمات الثناء والتشجيع ؟ أم أن الامر يتصل بصورة مباشرة بحياته المعاشية وشؤونه اليومية ؟.. هل ادى واحد من هذه الاسباب الى انكماش الاديب في العراق ، ام ان هذه الاسباب كلها مجتمعة جعلت منه شخصا يائسا محطما منزويا لايثار لاقامة بناء ولا يتحرك لعمل .

الواقع ان دراسة هذه الاسباب منفردة ومجتمعة تحتاج الى بحث كبير قد لا تستوعبه هذه الكلمة ، ولكنا مع ذلك سنحاول جهدنا ان نشرحها باختصار ، ونوضح للمستفسرين والمتسائلين عن الادب في العراق بعض العوامل التى كانت سببا في انعزاله وانكماشه ..

ان اى مطلع على خط سير الادب في العراق ، يعلم تماما ، انه في اعقاب الحرب العالمية الثانية ظهرت اقلام كثيرة تكتب في شتى المجالات في الادب ، والفن ، والفكر .. شباب كان مدفوعا بحماس كبير لانتاج ادب جديد .. كان يقرأ بكثرة ويستوعب ما يقرأ ، وكان التعطش الى الثقافة والتحرق الى تفهم اصول هذه النهضة الحديثة للادب والفن يدفعانه الى متابعة ما ينشر في البلاد من كتب تضم مختلف العلوم والاداب والفنون لمشاهير الكتاب العرب ، امثال طه حسين ، والمازنى ، والزيات والعقاد والرافعي والحكيم ولطفي السيد وتيمور وغيرهم من الذين يعدون بحق بناة الادب الحديث ومؤسسيه .. ويدفعانه ايضا الى متابعة ما يترجم لمشاهير الكتاب في العالم والعناية بهم واستيعاب افكارهم العميقة بالاضافة الى ما كانت تحمله سائر المجلات العربية ، كالرسالة والرواية والثقافة والمقتطف وابولو والكاتب المصرى والكتاب وغيرها من بحوث قيمة ، ودراسات مركزة ، ومناقشات مثمرة تدور حول طبيعة هذه النهضة الفكرية الحديثة وهذه المذاهب الادبية الجديدة التي كانت تحاول ان تؤكد وجودها بما كانت تحمله من حيوية وتدفق .. فكان الاديب في العراق يحاول من خلال المعركة التى كانت قائمة انذاك بين انصار القديم والحديث ، او بين مؤيدي ادب الشكل واللفظ ومؤيدي ادب المضمون والمحتوى ، ان يحدد هو ايضا موقفه من هذا الصراع ويؤكد وجوده كأنسان له الحق في ان يعلن ما اختمر لديه من فكر وادب وفن ما دامت نفسه التواقة تمور بحب التجديد والانطلاق ،واعماقه تتمزق ويسعد بهذا التمزق الروحي فاعلنها هو ايضا ثورة على الاساليب البالية والنصوص الجامدة والادب التقليدي

البعيد عن الحياة ، وراح يجهد في بناء ادب جديد ، ادب يستمد قوته من الحياة نفسها ، من الواقع المؤلم الذي نعيشه ، من اعماق النفس القلقة والشعور الممزق ..

وكان من الطبيعي بعد الثورة ان تنشأ بوادر معركة هنا ايضا بين الشيوخ والشباب كنتيجة حتمية ومتوقعة للصدام الذى يقع بين الجمود والحركة وكان من الطبيعي ايضا ان تدور المعركة بين ادباء الشباب انفسهم ، مادام حب تأكيد الشخصية يعمل عمله في نفس كل اديب يشعر بالاصالة والاستقلال .. وكانت طبيعة الادب من حيث كونه فنا وكفى ، وواجباته من حيث كونه مرشدا وكاشفا ، مدار هذه المعركة .. فظهر من يدافع عن الالتزام في الادب والفن ويدعو له بقوة وحرارة ، وظهر من يدافع عن حرية الادب والفنان فيما يكتب ويبدع .. فكان الفريق الاول يرى انه من الخطل ، بل من الجمود والنكران ، والاديب الفنان هو الضمير الحي لمجتمعه وواقعه ، ان يتعامى عن حياتنا الواقعية الغارقة في البؤس والشقاء حتى اخر درك من دركات الانحطاط ، ويتصامم عن صراخ الظلم يقع في كل لحظة من لحظات الحياة على ابناء قومه ، ليتغنى بقطرات الندى تتلألأ على صفحات وردة باسمة ، او ينفث الزفرات الحرى ، ويرسل الدموع الحزينة في اثر حبيبة غاضبة ، وكأنه انسان من غير هذا المجتمع لايعيش واقع الناس المؤلم ، ولا يحرك شقاؤهم وبؤسهم وترا من اوتار نفسه ، ولا يثير فيه عذابهم والامهم كوامن حسه الانساني .. والاديب الحق هو من يتشرب الام شعبه الكبيرة ، ويتمثل اماله بحسه الانساني المرهف ، فيكون الاحتراق وتكون النار ، والا فانه اديب كاذب دجال همه ارضاء نفسه المغلقة على ذاتيته المفردة ، واتباع لغباته الخاصة ..

ولقد غالى بعضهم في الالتزام والدعوة اليه حتى كادت الدعوة نفسها ، بما تحمله من سمو مقصد ونبل غاية تتحطم بين ايديهم ، لما كانوا يبدونه من تعصب لبعض الصور السطحية المهزوزة ودفاع عن بعض الافكار الفجة السيارة كانت كل فضيلتها أنها مأخوذة من الواقع المعاش .

اما الفريق الاخر ، انصار الحرية في الادب ، فقد كانت حجتهم تقوم على ان الوعظ ليس من واجبات الادب الاصلية ، وانه يفقد جميع خصائصه ومقوماته اذا هو فقد الحرية .. فالاديب حر فيما ينشىء ويقول ولا سلطان عليه .. كالبلبل ، ينشد متى ما وجد نفسه تدفع الى الانشاد ويصمت حين لايجد ذلك الدافع الى الغناء .. واذا لم تكن للادب من فضيلة غير فضيلة ادخال السرور الى النفس الحزينة فانها وحدها كافية لدحض كل الاراء الاخرى .. اما الالتزام عند بعض الذين كانوا يقفون موقفا وسطا فينبغي ان يكون طوعا لا اكراه فيه ولا اضطرار ، وبذلك يحتفظ الادب بعرفهم ، بميزاته الخاصة وصفاته الدالة عليه .. ولا يكون سلعة تباع او منبرا للوعظ والارشاد ، وغيرها من الحجج والاراء المستعارة من الصراع الذي كان قائما في اواسط القرن التاسع عشر ، بين ادب الشكل وادب الذات ..

ومهما يكن ، فقد كانت هناك حركة قوية ، وبوادر بناء حي يغذى بالعرق ويسقى بالدموع ..الا ان هذه الحركة بدأت تفتر شيئا فشيئا ، وهذا النشاط بدأ يتضاءل ، وظلت الاسس التى انشئت كما هي لم يقم عليها البناء الذي كان منتظرا .. وكأن الذين كانوا يعملون في تلك الأسس قد سئموا البناء او انهم وجدوه اضخم واشق من ان تحتمله نفوسهم الغضة فتركوه ولما تبد معالمه بعد .. وشيئا فشيئا بدأت الاقلام تختفي ، اقلام كثيرة ، كان ينتظر منها الشيء الكثير لو انها ظلت مدفوعة بمثل ذلك النشاط والحماس .. وبدأت يد النسيان تمتد الى وجوه كانت تقف في المقدمة من المعركة ، وانغمروا في الحياة العادية الراكدة ، ولم تبق غير فئة قليلة ظلت تصارع الحياة بقوة وعنف لكي تؤكد ، بين الفترة الطويلة والاخرى ، وجودها المهدد بالابتلاع ، وغير فئة اخرى كانت تتخذ من الادب وسيلة لتجارة او مركز ..فلماذا كانت الدفقة القوية من الحركة والنشاط ، ولماذا اعقبها هذا الفتـــور والجمود ؟ ..

المعروف أن المصباح الذي يصنع خصيصا لكي يضيء على القوة البطارية

فقط ، يحترق اذا لامسته اولى شرارات الكهرباء .. الم تكن في نفوس ادبائنا تلك القابلية الكبيرة والحركة المستمرة للعمل فتوقفوا عند أول بناء جدي ؟ ام انهم لم يجدوا الادوات اللازمة للعمل ولم يجدوا كذلك من يعينهم في البناء فتخلوا عنه والالم العظيم يمزق قلوبهم ؟..ام ان الاسباب التي نساءلنا عنها انفا والتى سنأتى على شرحها بصورة مختصرة هي وحدها التى يعزى اليها تخلف الادب في العراق عن مواكبة الحياة في طريقها الشاق الطويل ، واليها وحدها يعزى تحطيم نفسية الاديب ، وموت الامل فيه ليعيش في دوامة من اليأس القاتل ؟ ..

فمما لاشك فيه ، ان الاستقرار الفكرى والاطمئنان النفسى يكادان يكونان الدعامتين الاساسيتين للاديب المنشيء والمثقف المفكر .. فالادب ، كما هو معروف ، يقظة وانتباه قبل كل شيء وترصد مرهق لكل ما في حياة المجتمع من تناقض طبيعي ومفتعل ، ولا يكون مثل هذه اليقظة ، ولا مثل هذا الترصد، الا اذا كانت النفس على جانب كبير من الاستقرار ، فما من أدب والفكر مشغول بأمور لاتمت اليه بصلة ، والنفس قلقة مضطربة عن تحسس خفايا الشعور وعمق الاحاسيس .. فاكثر ما يحتاجه الاديب الفنان ، هو الاستقرار في حياته النفسية والفكرية .. ومعلوم ان غذاء الاديب الاساسي هو القراءة المستمرة .. واستيعاب الكتب الجدية وهضمها لايكون الا اذا توفر الاستقرار الفكري والنفسي للاديب . وكذلك الامر في حالة الانشاء .. فالاديب يعجز تماما عن الباس الفكرة التى تدور في رأسه ، او الخاطرة التى تمور في كيانه الثوب اللائق ، او اظهارها الى عالم الوجود ، اذا كان القلق الفكرى والنفسى هو الغالب عليه ، وليس القلق الذى نعنيه هنا هو الذى يكون في الاديب نتيجة للصراع القائم في داخله كأن يوفق في ابراز الفكرة التي تدوى في رأسه على النحو الذي يود ، او يتحرق الى اظهار وليده تام التكوين والخلقة ، ينبض بالحياة ويمور بالحركة .. فان مثل هذا القلق الفعال المنتج يدفع ولا يميت .. ولكننا نعني ذلك القلق المتجمع من الخوف

•• من الغد المظلم ، من المستقبل الغامض المضطرب •• فالاديب يعيش فكرته منذ تولد فيه وتظل تصطرع في اعماقه البعيدة كشيء مبهم ولكنه يحس انه غير واضح التكوين ولكنه حي يتحرك •• ويظل يرعى هذا الوليد في اعماقه كقطعة منه •• ويظل في تغذية مستمرة له •• اعصابه ، وقلقه ، ودموعه •• طعامه العذاب •• والجنين ينمو ويترعرع حتى تكتمل بعض جوانبه ، فيطرق عليه باب كيانه ليخرج منه •• ساعة الوضع قد حانت •• وكل الذى يطلبه في تلك الساعة العظيمة ان يكون هادئا شديد الانتباه دائم اليقظة حتى يتهيأ للوليد ان يخرج بحرية وسهولة ، وحتى لا يكون هناك عسر وتشنج يقضيان عليه او يعملان على تشويهه ••• فان اية غفلة ، او انسراح في الفكر او النفس بعيدا عن مراقبة عملية الوضع كافية ان تجعل الاثر الوليد مضطربا واضح التشويه •• فالاستقرار والاطمئنان هما الدعامتان اللازمتان للاديب كما قلنا •• ثم يأتي دور النشر •• دور ايجاد مكان في هذا الخضم الكبير للكائن الوليد .

قد لايكون هناك سرور يعدل السرور الذي يحسه الاديب الفنان وهو يرى الجنين الذي كان يعذبه ويتغذى كيانه به ، ويمنع عنه النوم ، ويحرمه بهجة الحياة ، خلقا سويا ، ينبض بالحياة ويفيض بالحركة •• ويمتلىء زهوا اذا هو دفع به الى الوجود ككائن حي يشق طريقه في الحياة ••

هذا التقديم او الدفع يحتاج الى جهد اخر •• انها سلسلة من الالام متصلة الحلقات يعانيها الاديب في حياته الفكرية ، والجهد في ايجاد مكان لهذا الكائن الوليد من اشق الامور واصعبها في مجتمعنا الذى نعيش فيه ••

المجتمع الحي •• المجتمع المدرك ، المجتمع الذى يقدر قيمة الحياه ويعيشها حتى نهايتها الرائعة ، يتلقف مثل هذا الكائن الحي ويحيطه بالرعاية •• ثم يأخذ في تقديمه وابراز شخصيته واظهار ملامحه كصورة ناطقة لعظمة الانسان المبدع ، ولا ينسى بعد ذلك ان يكافىء «المبدع» هذا بالثمن الذى يستحقه •• ذلك لانه يدرك ان المل هو عصب الحياة ، وان ما انشأه الاديب

وأبدعه لم يأت عبثا انما كلفه غاليا ، كلفه دموعه واعصابه ، كلفه مالا كثيرا اقتطعه من قوته اليومي ..من قوت اطفاله لكي يشترى كتبا واوراقا وحبرا .. لقد بذل كثيرا وعانى كثيرا فيجب ان يكافأ على الاقل بمال قد لاينفق في غير الكتب .. الطعام الاساسي للاديب ..

اما هنا ، فالامر يختلف تماما .. يندفع الشباب في القراءة اندفاعا مجنونا ، يدخر مصروفه او يقطع من لقمته لكي يشترى الكتب والمجلات .. ويمضى ساهرا ليله كله في استيعاب وهضم ما يقرأ .. وينخرم الزمن وجذوة الفن المقدسة تلهب كيانه وتحرق غضارة شبابه .. وشيئا فشيئا يشعر بشيء يملأ عليه نفسه .. الحنين ينمو في اعماقه .. الكيان الحي ينرعرع في داخله .. فيزداد الما وشقاءا ، ويزداد اشراقا وتضحية .. ويمضى مناغيا جنينه بحنو بالغ .. خذ ماشئت من دموعي واعصابي .. وتغذ بوجودي والأمي .. حطم اذا شئت كياني ، فاني فقط اريدك ان تعيش ، ان تحيا .. ان ترى النور .. وتحين ساعة الطلق ، ويروح يدور كالثور الطعين باحثا عن مكان يضع فيه مولوده .. اين ؟ هناك ؟ .. اللهم امنحني القوة والعون .. وتتم الولادة ، بسهولة او عسر ، بالام عظيمة او بغير الام ، بنزف او بغير نزف فليس ذلك بالمهم .. المولود بين يديه ، وها هوذا يرتجف ويملأ المكان صراخا ..وتشرق نفسه بالسعادة العظمى .. ويتلفت حوله عله يعثر على انسان يشاركه هذه الفرحة الكبرى .. فيجد وياهول ما يجد .. صمتا هو الموت .. وسكوناً تنبعث من كل زاوية فيه صرخات السخرية والاستهزاء .. فيعتريه الالم العميق ، يمزق وجوده .. ولكنه لم يكن قد يئس بعد .. ان قوة الحياة مازالت تدفعه الى الحركة والعمل .. فيمضى حاملا وليده بحذر ورقة الى بعض الصحف والمجلات ، ولكن الصمت القاتل والسخرية الرهيبة هما كل ما يحضى به .. وينخزل شيء في نفسه ، وبمهانة كبرى تطل عليه لتبتلع كبرياءه كلها .. وقد يدفع لكي يتقمص دور المهرج الكبير ، فياخذ بالدعابة للكائن الذي يكاد يتحطم بين يديه وسهام متتابعة تنغرز في اعماقه

وهيئته تكاد تتخذ هيئة وحش جريح.. ولكن أحداً لايسمع وقد يظنونه مجنونا أو متصنعا الجنون فتشع ابتسامات السخرية والاستهزاء . وحينذاك فقط يكون اليأس هو أول مايشعر به ، يأس قاتل .. يأس يجعله يشعر بغضب كبير على كل من يحمل كتابا بيده .. فيرمي بوليده اليهم وكل شيء فيه ينوح ويبكي.. خذوه وتغذوا به .. لقد يئست منه ، وانا اكرهه واريد التخلص منه ...

وانذاك فقط تتفتح قلوب الشامتين .. النشر مجانا ، دون مقابل هو كل ما يبتغيه صاحب المجلة او الجريدة هنا .. ان يملأ جيوبه ذهبا على حساب اعصاب ودموع من ابتلى بذلك اللهب المقدس .. ولكن المسرحية المفجعة لم تكن قد انتهت بعد ، انها قد تستمر حتى آخر المأساة .. فان الاديب مايكاد يجد نتاجه منشورا حتى ينسى كل شيء .. ينسى كل مالاقى من عذاب وآلام وتمزق.. ويشرق الأمل في نفسه من جديد ، أمل رائع يضم الوجود كله .. وتتكرر العملية مرة بل عشر مرات ، ولكن النشوة تكون انذاك قد فقدت معناها لديه،ويكون الحماس قد ارتطم بالف صخرة وصخرة وتطامن قليلا .. المهزلة الكبرى التي يمثلها مع نفسه وتتكرر في كل مره وعلى نحو افجع وادمى .. ويمضى يساءل نفسه .. لماذا كل هذا التحرق والعذاب ، ولمن أشد اوتار قلبي اذا كانت المخالب لاتنفك في توالي تقطيعها وتمزيقها .. وتنصب امامه اشياء قرأها في مصادر عذابه وشقائه ، في الكتب فقد قيل قديما ان النبع الذى يسيل منك اولى ان تنتفع به اولا ، والا فخير لك أن تطمره .. ويتضاءل ويكون الانكماش شيئا فشيئا محطما كل شيء .. ثم تفتح الحياة له ذراعيها لتحتضنه من جديد .. الحياة التافهة .. حياة التبطل والاسترخاء والانغماس في مباهج كان يعدها رذائل . ويصفق له المجتمع مرحبا به ومعلنا انتصاره عليه ..

ليس انعدام الاستقرار والاطمئنان في حياة الاديب ، وعدم توفر وسائل النشر او تعهد ما ينتجه بالرعاية والعناية والتقدير ، السببين الاساسيين في خمود الاديب في العراق وانكماشه على نفسه .. فهناك ايضا الحياة المعاشية ..

الرزق اليومي ، العمل المرهق ..

كان لي صديق يكتب للاذاعة قصصا سهلة التركيب سطحية المعنى، وتمثيليات خفيفة .. وكنت اشعر انه يملك من الطاقات المخزونه ما يستطيع معها لو انه انتفع بها وسفح من روحه ونفسه شيئا فيما يكتب ، ان يأتي بشيء جيد .. فكان يقول : وانى لي ان اكتب الشيء الذي تنشده وانا ما اكاد اجلس للكتابة حتى يتشعب فكرى الى نواح عدة في كل زاوية ينتصب دينار او نصف دينار .. وقد يتخذ من الكتابة وسيلة يعتاش منها .. يقيس مايكتب بالشبر .. الشبر بكذا .. كانت الحاجة تضطره الى ان يحول دموعه وعرقه واعصابه الى دراهم يسد بها افواه الدائنين ..

ولقد ذكرنا انفا ان غذاء الاديب الاساسي هو القراءة المستمرة ولا يأتي هذا الغذاء عبثا ، او يتلقفه من الطبيعة مع الهـواء انما يدفع ثمنـه دراهم يقطعها من قوته اليومي وقوت اطفاله .. وهذا الغذاء يحتاج الى هضم وتمثيل لايمكن ان يتحققا الا في جو هاديء واطمئنان الى المستقبل .. والموهبة كما يقولون واحد في المائة ، والبقية كد وجهة وعرق .. فالتفرغ للادب والفن والفكر ، امر ضروري ولازم لكل من يريد ان يبدع شيئا جيدا .. ولايكون هناك انتاج عميق والفكر موزع في مجالات شتى ليس من بينها ماله صلة به والنفس قلقة مما يأتي به الغد المظلم .. وكما ان ايةمهنة اخرى غير مهنة الادب والفكر لايتم اتقانها واستيعابها والتسلط عليها الا بالتفرغ التام لها واعطائها كل وقت صاحبها وكل طاقاته وجهده وابعاد كل عمل يتنافى وطبيعة مهنته .. فكذلك مهنة الادب ، فانها تحتاج الى تفرغ تام وجهد مستمر وعذاب دائم حتى يتمكن منها صاحبها ويتسلط عليها،والا فانها تتحطم بين يديه وتمسخ الى هواية طارئة لايعود اليها الا في أوقات فراغه ، ونادرا ما يحظى بمثل هذه الاوقات .. انه مضطر الى قتل كل تلك العوالم المشرقة التـي تشع في خفايا نفسه وفكره ، ذلك لان الادب والفن لا يطعمان صاحبهمـا في هذا البلد وقد يؤديان به الى الجوع ... فلا مفر اذن من ايجاد وسيلة

يعتاش منها ، فينخرط في عمل يتنافى وحياة الفكر تنافيا تاما .. عمل بعيد كل البعد عن التأمل والهضم والاستيعاب وليس من سبب يربطها به أو يجمعها اليه .. عمل جاف مرهق يقتل فيه احاسيسه الطيبة وآماله الوليدة وشعوره السمح .. عمل يحجر فيه اعماقه الخصبة ويطفىء تلك الجذوة التى تتوقد فيه ، جذوة الفن المقدسة .. وها هو ذا الاديب يعود الى بيته بعدذلكالعملالشاق بساعاتهالطويلةوالتعبيكاد يقضى عليهوالاعياء يكاد يقتله. يجر خطواته حزينا مهموما والالم يعتصر قلبه عصرا ، فها هي ذي اشياؤه العزيزة ، اشياؤه الكبيرة اشياؤه التى لايعدلها بالكون كله ، تحتضر بين يديه وتموت ولا يستطيع لها شيئا .. وتتساقط الدموع صامتة في نفسه ليس هناك من يفهم حقيقة ما يملك ، وليس هناك من يدرك عظمة ما يفقد .. في كل يوم يدفن في نفسه صفحة من وجدانه ، فلذة من كبده مزقة من وجوده .. وقد يزفر في بعض الاحيان زفرة عظيمة تكون بمثابة الاحتجاج الكبيرعلى الوجود وعلى الكون كله .. وهذا غاية ما يستطيع فعله .. ان يحتج بصمت وفي داخل اعماقه فقط .. فأي شيء يستطيعه هذا الانسان بعد هذه الالام العظيمة والاجهاد الكبير لفكره وجسده اى شيء ؟.. اجل قد يعاوده الامل مرة واخرى ، وقد يحس برعشات الحياة تنبعث من بعض الاجنة تدغدغ كيانه والتى لم تمت بعد ، فما زالت بقايا طراوة من وجدان تبعث فيها القوة والحيوية .. ويمضى خفيفا الى مكان بعيد عن الناس والاشياء ، او يضع نفسه في حجرة يحكم عليه ابوابها ويغلق نوافذها .. انه يريد ان يكون خالصا لنفسه ، ينعم بمفرده بهذه الحياة التى تدب فيه ، بهذا اللهب القدسى .. فيضع الكتاب في حجره بعناية ورقة وينسى كل شيء .. او ينثر الاوراق امامه وتعتريه الغيبوبه ، ولكن الى متى يستطيع تمثيل هذه المهزلة مع نفسه .. مائة مرة .. الفا ؟ .. وبعد ان كل شيء يقف ضده ويعمل خلاف ما يصطخب في وجدانه وفكره ..

لقد كانتهناك أيد كثيرة تتلمس طريقها في الظلام لتبني شيئا ، لتقيم

بناءا .. كانت صادقة وكانت نشطة ومندفعة ولكنها تيبست وهي لما تزل في نضارتها وغضارتها .. لماذا ؟.. الركض وراء اللقمة ، العمل الرتيب الشاق الخوف من الغد ، القلق من المستقبل المظلم .. انها الاشباح التي تطارد الاديب في حياته ..

وقد يتساءل بعد هذا متسائل ويقول ، ان محاولة تضخيم هذه العوائق والاسباب في تبرير انكماش الاديب في العراق وخمود الادب امر مغالى فيه ، او انها ليست الاسباب الوحيدة التي عملت على خمود الادب في العراق ، ان هناك اسبابا اخرى غيرها لا علاقة لها بالاستقرار والتفرغ والحياة المعاشية، فهناك مثلا الغرور الكبير الذى يرافق المتأدب في مطلع حياته الادبية ، ويكون سببا في القضاء عليه ، وهناك الازدواج في الشخصية ، ومحاولة هدم كل عمل طيب او غير طيب .. اجل ، ان هذه الامور قد برزت بشكل او باخر في مطلع حركة البناء التي اشرنا اليها انفا ، فظهر من ركبه الغرور الكبير وهو لما يبصر بعد فخيل اليه وهو في اوج نشوته ، انه قد بلغ القمة وادرك الكمال، فـراح يتيه خيلاء ويحتقر كل الاقـلام التي كانت تتلمس ، مثلـه تماما ، طريقها في الظلام ، وكأنها كانت تنازعه العرش او تريد ان تسرق من يده الصولجان .. ولم يكن هناك عرش ولم يكن هناك صولجان .. فقد كانت محاولات لا اكثر ، محاولات اقلام راعشة لبناء شيء جديد .. وما انشيء لحد الان لايعد شيئا بالقياس الى الادب العربي الحديث ، بل العالمي .. ولكنه الغرور الكبير .. وظهرت ايضا الضحالة والسطحية .. هذه النوازع الفردية قد توجد في حياة المجتمعات بصورة عامة كما توجد في حياة الادب في حالة التفرغ والاستقرار وليس لها علاقة بالخوف والركض وراء اللقمة .. فالاسباب الاولى هي الاصل واليها وحدها يعزى خمود الادب في العراق وانكماش الاديب على نفسه .. والاخيرة قد تكون فروعا اولا تكون .. والجشع المادي البشع الذى يسيطر على اصحاب الصحف والمجلات ، والعمل المرهق الرتيب ، والخوف من الجوع ، والقلق من المستقبل ، وحالة التوتر

الشديد التي تهيمن على اعصاب الاديب ، واليأس الكبير الذى يسيطر عليه ، والفزع القاتل مما يأتي به الغد .. هذه كلها ، واخرى غيرها هي التي ادت الى خمود الادب والفن والفكر في العراق ، وهي التي جعلت من الاديب العراقي شخصا منكمشا ، يائسا محطما ، لا يدفع لعمل ولا يتحرق لبناء . لقد فقد كل الاشياء العظيمة التي كانت تدب في كيانه .. رآها تحتضر بين يديه وتموت امام سمع الناس وبصرهم ولا كلمة مواساة واحدة ، ورأى ايماضات فكره الوليد تستحيل الى رماد لانفع فيه ولا رجاء ، رماد ابيض يكاد يمزق وجود صاحبه في لحظات التذكر الصامت .. كان يأمل لتلك الايماضات الوليدة ان تتوقد وتضيء ، ان تمنح الحياة شيئا جديدا ، ان تنير ما هو مظلم ، وتحرك ماهو ساكن جامد .. ولكنها سحقت وهي في اول لمعانها .. ورأى جذوة الفن في نفسه ، تلك الجذوة المقدسة ذات اللهب الرائع ، ترمي بالف حجر وحجر .. وهو ينظر فقط ، ينظر وعالم تام التكوين يتهاوى في اعماقه ويستحيل الى انقاض .. اجل ، انه قد يعود الى ذلك الركام في الفترات البعيدة ، يبحث فيه عن شرارة لم تطفأ بعد .. ولكن مثل هذه المحاولات تكون كتلك الام التي تعود قبر وحيدها في لحظات الالم الممض .. وتستقر على وجنتيه دمعة صافية كبيرة ..

وحين قامت الثورة ، كانت الاقلام تلك قد بلغت حدا من التيبس لم تستطع معه مواكبتها .. وظلت تنظر بذهول ، وتتحرق باخلاص ان تستمد بعض القوة من هذه الثورة فتعبر عنها او تحللها ، ولكن ، هيهات ان المخزون من طاقات الماضي لا يكاد يذكر .. والاعماق الخصبة تكاد تنضب او هي على وشك النضوب ، فقد انقطع الرفد منذ أمد طويل ، وكل ما ظهر من تعبير عن الثورة كان سطحيا وتافها ، يمس السطح مسا خفيفا مصطنعا ولا يغوص الى الجوهر ولو بمقدار سنتيم واحد ..

انها النهاية المروعة لحياة الاديب والمفكر في العراق ، كنتيجة حتمية لذلك الصراع المر بينه وبين تلك الآفات المتشابكة المتداخلة مع بعضها ولا

ينتظر من الاديب او المفكر او الفنان ان يمضي الى آخر الشوط وهو سجين تلك القيود القاتلة ، وان الاسس الطرية ، تلك التي انشأها بدموعه واعصابه ستظل كما هي اسسا واهية غير ذات قيمة من الوجهة الموضوعية بالقياس الى الادب العربي الحديث ..

اجل ، قد تظهر في قابل الايام ، محاولات اخرى جديدة ، محاولات تشد من هذه الاسس بغية اقامة بناء عليها .. وقد تظهر اقلام جديدة اخرى ، اقلام فتية ، تحاول من جديد ان تنشيء وتبني مدفوعة بحماس الشباب وحيويته ولكنها ستتلاشى حتما ، اذا لم تتحرر من الخوف ، او تأمن الغد ، او تنعم بالهدوء والاستقرار ، او تجد من يعينها ويأخذ بيدها ويمسح عن جبينها حبات العرق وغمائم الالم ، والا فان المأساة الدامية ستظل تتكرر في تشابه تام ونهاية واحدة .. ما دامت كل تلك الآفات والاسباب التي ذكرناها آنفا هي المسيطرة على الاديب في حياته الشاقة الطويلة ..

ذيل الحمار

لا شك ان الحركة الادبية والفنية في العراق تمر بأزمة قد لا نغالي اذا قلنا انها من اسوأ الازمات على الاطلاق ، وانها منيت بنكسات متتالية افقدتها الحيوية والنشاط • وقد نستطيع ان نستعير اصطلاحا طبيا فنقول انها تمر بأزمة ـ الشلل الوقتي ـ •

هذه الحقيقة تكاد تكون معروفة لدى جميع المعنيين بالشؤون الفنية ، بل انها تفرض عليهم وجودها بكل ما فيها من قوة ، ذلك لأن الفن لا يمكن ان ينمو الا في جو من الهدوء والطمأنينة النفسية ، وفي ظروف لا يملك الفنان فيها الا أن يعمل وينتج ، لا ليرضي الآخرين انما ليرضي ما يعتمل فيه من نوازع فنية وادبية ، وهو بذلك يشعر انه يحقق جزءا من وجوده او انه يؤكد ذاته عن طريق الفن •• اما في حالات الاضطراب، فانها لا تؤثر عليه كفنان وحسب ، وانما كفرد يريد ان يعيش حياته فقط، يعيشها كيفما اتفق ، ذلك لأن غريزة الحياة تتشبث بالمستحيل لكي تجعل صاحبها يتنسم الهواء وان كان مليئا بالضباب •• وحيث ان مجتمعنا مر بهزات عنيفة وقاسية ، فانها حتما تؤثر على نفسية الفرد وعلى سلوكه تاثيرا حادا مباشرا •• ومن الطبيعي ان تؤثر هذه الهزات على نشاطات الفرد الخاصة او العامة • فنية كانت ام اجتماعية •• فحين يشعر الانسان انه مهدد ، وانه ضائع ، وانه يدور في فراغ مخيف فان التفكير في المستقبل او في العمل الجاد او في البناء المثمر يصبح ضربا من البلاهة •

ونحن حين استعرنا الاصطلاح الطبي وقلنا ان الحركةالفنيةوالادبية في العراق مصابة بما يسمى بـ ـ الشلل الوقتي ـ لم نكن نقصد التهويل او المبالغة بل انها في الواقع مصابة باكثر من داء واحد • والجفاف الفني والادبي الذى يكتنف واقعنا خير دليل على ذلك •

لذا فان اية نفحة نراها تهب من اية جهة كانت على واقعنا الادبي خليقة بان تملاء النفس ثقة واملا •

اقول بعد هذه المقدمة السريعة عن الحركة الادبية والفنية في العراق انني زرت معرض جمعية الفنانين العراقيين الذى اقيم في المتحف الوطني • وقد شعرت وأنا أتنقل فيه ان قسما من اللوحات المعروضة تثير في خواطر كثيرة ما كان بمقدوري ان اجيب عنها اجابة واضحة او مفهومة فانفر منها في حين كنت اقف امام بعضها الآخر مبهورا لا ارضى ان اتزحزح عنهـا واتأملها باعجاب لا حد له •• وكدت اتهم نفسي بالعجز عن استيعاب ما تحتويه تلك اللوحات التي كنت أشيح بوجهي عنها من مشاعر دفينـة وفن يستدق على الفهم •• ثم رحت اقارن بين ـ مسرح اللامعقول ـ الذى يبحث له الان عن رواد متذوقين وبين ـ فن اللامعقول ـ الذى يجـري من خلال ريش بعض الفنانين وقلت : بما ان الفرصة لم تتح لنـا بعد أن نشهد عملا واحدا للفن المذكور ، اللهم سوى نزر ضئيل من الاراء التـي قيلت فيـه ، فاننـا لا نستطيع كذلك أن نقطع فيـه بحكم ، وكل ما نستطيع أن نفعلـه هو أن نقف منـه موقفا محايدا ، أو ننقـل اراء بعض النقاد فيه دونما اضافة ما دمنا لم نسبر غوره او نعش وقائعه • وكذلك الامر مع ـ فن اللامعقول ـ • واذا كانت بعض اللوحات المعروضة تعبير عن واقع هذا الفن ـ تصوير اللامعقول ـ فاننا لا نعرف ان هناك آراء قيلت فيه • فالامر اذن يختلف • هناك آراء لاعمال لم نقف عليها كاملة • وهنا عمل لا رأي فيه ••

انا أوقن ان الفن لا يخضع في كثير من الحالات الى محاكمات عقلية

او منطقية ، والا خرج عن كونه فنا ، ولكني أوقن كذلك ان المناقشات العقلية شيء ومناقشة الاحساس الذى يتركه الاثر الفني في نفس المشاهد أو القارىء أو السامع شيء آخر .. ومن هنا رحت أستعرض جملة من الآراء التي قيلت في الفن بصورة عامة . بل رحت أتدرج مع التطور الكبير الضخم الذى رافقه .. ثم رحت اقارن بينهما وبين بعض ما شاهدت من لوحات .. وعلى ضوء ذلك استطعت ان اعيد شيئا من الثقة التي كدت افقدها في اول وهلة وقع فيها نظري على لوحات معينة في المعرض المذكور الى نفسي .

واحب ان اؤكد هنا ، انني أومن تماما ان تطور الحياة لا يمكن ان يقف عند حد . وان استقراءاً بسيطا لحوادث التاريخ يفهمنا بشكل قاطع ضخامة الاشواط التي قطعتها الحياة في شتى المجالات .. وحيث ان الفن هو جزء من الحياة ، او انه خلاصة احاسيس ومشاعر وافكار الانسان المتطور ، فان من الطبيعي ان يمر هو ايضا بنفس المراحل التي مر بها الانسان ابتداءاً من مرحلة البداوة ..

لذا فان ظهور آراء تدعو الى تجديد ناحية من نواحي الحياة ،او الى هدم بعض المفاهيم المتوارثة والمألوفة ، قد يثير حفيظة كل اولئك الذين لا يريدون ان يتزحزحوا عن اماكنهم التي أصبحت بمرور الزمن لا يتجرأ منهم ، ومن هنا تنشأ المعركة بين الطرفين .

وحين ظهرت ـ كمثل بسيط نسوقه في هذا المجال ـ بوادر الشعر الحديث ، وظهرت في اعقابه آراء تبارك هذه الخطوة الجريئة وتناصرها ، قامت ـ وما تزال ـ معركة حادة بين انصار الشعر العمودي والمتوارث وبين انصار التحرر من القافية . حتى ان بعضهم لجأ الى ارخص انواع الاسلحة حين راح يتهم دعاة حركة الشعر الحديث بالشعوبية .. وعندي ان ذلك كله ناتج عن غريزة متأصلة في نفس الانسان ، هي دفاعه عن وجوده وكيانه وعن الامور التي ألفها واعتادها ولا يرضى أن يتخلى عنها .. والا

فان النقاش الموضوعي لآراء الطرفين ، او ان المنطق ذاته اذا استعير لمناقشة هذه الآراء او تلك لا يبيح ابدا اتهام اية جهة بمثل تلك الاتهامات الظالمة ، ذلك لان المناقشة الهادئة الرزينة توصلنا حتما الى جزء من الحقيقة التي نسعى جميعنا وراءها ، بعكس الهياج او الصخب او تعمد اثارة الغبار في وجوه الآخرين ، فانها تؤدي الى الفوضى .

وحين رفع ـ بيكاسو ـ لواء التجديد في الرسم تقبل بعضهم الفن الجديد بشيء كثير من الاعجاب ، وانقلب عليه او وقف ضده كل من لم يكن يملك استعدادا لمجاراته او قبوله ، ثم لجأوا الى التذمر والسخرية ، حتى ان حكاية ـ ذيل الحمار ـ المشهورة ظلت تنتقل من رأس الى رأس ، وهي لو اننا اخذنا ذيل حمار وغطسناه في الالوان ثم نفضنا ما علق به على قطعة من الورق او القماش كيفما اتفق ، لما اختلف الشكل الذى يحدثه عملنا ذاك عن اى شكل يخططه دعاة السوريالزم .

فبعد ان كان فن الرسم يعتمد بصورة رئيسية على النقل الدقيق للطبيعة او لما هو موجود في الواقع ، وعلى ما يضيفه الفنان من روحه على الواحه ، كبراعته في مزج الالوان او في التعابير الدقيقة التي يرسمها لملامح الانسان بصورة خاصة كالفرح او الحزن او الغضب او غير ذلك من الانفعالات النفسية التي يتفنن الرسام في اظهارها ، أصبح يعتمد على أشياء اخرى كثيرة لم يكن يعرفها في السابق ، واستعيرت له تعابير كان استعمالها مقتصرا على بعض الفنون دون غيرها .. فحيث ان الاذن ترتاح الى قطعة موسيقية تتساوق فيها الالحان تساوقا دقيقا يعتمد على ـ هرموني النغم ـ فان العين ايضا ترتاح الى صورة تتساوق فيها الالوان وحسب ، وان تشكل هذه الالوان شيئا واضحا ، يعتمد كذلك على ـ هرموني الالوان ـ وحيث ان الفلسفة انتهت الى اشياء تجريدية في الحياة ، فان الفن ايضا يستطيع ان يكون تجريديا ، بل وبامكانه ان يضفي تجريديته هذه

على الواقع المعاش .. وحين ينتفي الخطأ ينتفي الصواب ، والحياة عبث ، والفن انعكاس له ..

ومن هنا ايضا كان تعدد المذاهب او المدرس الادبية والفنية ..

اذن ، فان القتال او النقاش سيظل قائما ما دام هناك انسان يحاول ان يؤكد وجوده ويحقق ذاته بدفاعه عن أمور جديدة تهدم ما قبلها او تطورها، وآخر يحاول ايضا ان يؤكد وجوده ويحقق ذاته بدفاعه عن أمور ألفها واعتادها .

ومن البديهي ، بعد هذا العرض السريع لأسباب الخلاف الذى ينشأ بين الافراد والجماعات ، أن تظهر في أعقاب كل رأي جديد أو مذهب جديد ، جماعة تدعو لهذا المذهب او ذاك دونما فهم واضح للمذهب او للرأي الذى تدعو اليه ، وانما لمجرد ان تثبت انتسابها لشيء موجود في الواقع ، اي انها تحاول تأكيد ذاتها من خلال وجود الاخرين وان كانت تجهل تماما حقيقة ما يقال او يذاع ، اي انها ،بتعبير آخر ، تحاول ان تضع اقدامها في مواقع اقدام الذين قاسوا في محاولاتهم الشاقة لاكتشاف المجهول . ايثارا منها ، كما يقال ،للعافية .

مثل هذه الجماعات توجددائما وراء كل مذهب او رأي .. وهي ، دونما شك ، تشكل خطرا على اصحاب المذاهب الكبيرة ، اذ هي لا تكتفي بتشويه ما يدعو اليه غيرها وانما تعمل ، من حيث لا تدري ، على هدمه ..

فحين نشأت حركة الشعر الحديث في العراق وحمل لواءها المرحوم بدر السياب ونازك الملائكة وغيرهما منالذين مارسوا كتابةالشعر العمودي وتفهموا دقائقه واصوله ، ووقفوا على ما يقوله شعراء الغرب ونقاده في مجالات التجديد والابداع . انبرت جماعة لم يكن لها أي استعداد سابق، اي انها لم تهضم التراث العربي ولم تحاول ان تدرس اصول الشعر الغربي الحديث ، تحاول تقليد اثار المبدعين في هذا المجال تقليدا اعمى لا يرتكز على بناء أو يستند على أساس . فنتج عن ذلك أن عم الغث وندر

الجيد ، حتى اصبح الكثير مما يقال في هذا المضمار موضع تندر واستهزاء.

ويرافق هذه الجماعة التي تتطفل على موائد الاخرين وتقتات من فتاتهم ، فئة اخرى قد تكون اسوأ من الاولى ان لم تكن اخطر منها . فئة ـ المشعوذين ـ .. تلك التي تستقى ذخيرتها من الخلاصات التي تنشر للكتب ومن المجلات السيارة ، ولكنها ، لضآلة ما عندها ، او لانعدام الركيزة لديها ، تروح تتحدث عن الكون والحياة والفن والطبيعة وما وراء الطبيعة حديثا ملتويا معقدا لا يفهم منه شيء ، وتحاول كذلك ان توهم القارىء بما تنقله من اصطلاحات حفظتها وتعابير غريبة دونتها في كراس صغير . انها على جانب كبير من الدراية .

ومثل هؤلاء من يجالس علماء وفنانين يتحدثون عن الحياة والفن حديثا عميقا ولكنه لا يفهم منه شيئا ، وحين يطول به الامر ، وتتكرر مخالطته لهم يتركز فيه ـ بمرور الزمن ـ ايحاء يدخل في وهمه ان ما يتحدثون به امر عادي وميسور لكل انسان ، وباستطاعته هو ايضا ان يتحدث على غرارهم ، وهنا تقع ـ الطامة الكبرى ـ فلا هو يعرف ما يقول ، ولاانت تفهم ما يقصد .

ومع ذلك ، ورغم طغيان الغث والادعاء في مثل هذه المجالات ، فأن القارىء الذواقة ، او السامع المرهف ، او المشاهد السليم النظر ، يستطيع ان يلفظ بسهولة كل ما هو دخيل على هذا الفن او ذاك ، بل استطيع ان أقول ان النفحة الفنية الاصيلة هي التي تفرض وجودها على القارىء أو السامع سواء كانت الاداة التي استعملت في صياغة مشاعر صاحبها قديمة او حديثة ، ذلك لان الفن هو الذى يفرض وجوده بما يحدث من أثر في نفس المشاهد او السامع وليس الشكل او الاسلوب .. اي ان الحياة منذ ان كانت ، والتغيير الذي يطرأ عليها او التجديد الذي يرافقها انما يكون على اسلوب الحياة او على طريقة العيش ، لا على الحياة نفسها .. وكذلك الامر مع الفن ، اي ان جوهر الفن واحد في كل الامور ،

والتغير او التجديد الذى يطرأ عليه يكون من ناحية الاسلوب او طريقة المعالجة .. وحين يعجز الفن عن اثارة أية أحاسيس أو مشاعر في نفس المشاهد او السامع او القاريء يفقد صفته الاساسية ويبطل ان يكون فنا.. وانا حين اقف امام لوحة فنية انتظر منها ان تثير في حسا معينا ، قد يكون اعجابا خاصا واضحا ببراعة الفنان في التعبير الدقيق أو في الاسلوب ، وقد يكون شعورا مبهما يحمل معنى من معاني العذاب ، احسه بقوة لكني لا اعرف مدلوله .. اما اذا عجز الاثر الفني عن اثارة أي شيء في ، حتى ولا مجرد الشعور بالضياع ، فان التبعة لا يفترض دائما ان تقع على !

ولقد شعرت وانا اطوف في معرض جمعية الفنانين العراقيين بما يشبه الجمود يقف حائلا بيني وبين بعض اللوحات . ثم رحت اتشبث بالمستحيل علني اتنبه الى واقع الفن فيها ، وبينما انا ارغم نفسي على الوقوف امام احداها ، سمعتها تهمس بمرارة :

ـ ألم يحس الرجل حقا بسخرية كبيرة وهو يلطخ مثل هذه الالوان الداكنة المتنافرة على هذه القطعة من القماش الابيض !

والا فما افسر وقوفي امام الكثير من اللوحات ولا اريد ان اتزحزح عنها واتأملها باعجاب لا حد له ؟

ان الفن معاناة شاقة وجهود مرهقة ، فاذا خلال منها ، فان الادعاء المفضوح ، مهما كان كبيرا ومغلفا فانه لا يمكن ان يكسبه الاصالة او الديمومة باي حال من الاحوال .

اننا نجد في الحياة اشخاصا ، بسبب من نشأتهم ، او الظروف التي مرت عليهم يلجأون الى الالتواء في القول والعمل لكي يحصلوا على بعض الامور التافهة والتي كان بامكانهم ان ينالوها بيسر لو انهم سلكوا الطريق الواضح .. وكذلك الشأن في الفن ، فاننا نجد اشخاصا يتقصدون التعمية بقصد الاثارة لا غير .. يتقصدونها لذاتها لا لشيء وراءها .

وفي ختام هذه الكلمة اقول اني غير مستعد ابدا ان انصت الى ما

يشبه المأمأة أو الجوار أو احملق في ايماءات خرقاء ، ثم يقال لي ان المأمأة هذه والايماءات تلك تشير الى ناحية معينة في الحياة او الفن !

اننا ننصت الى الاخرين لكي نفهم ما يقولونه ، ونصغي الى الموسيقى لكي نستمتع بما تحدثه فينا الانغام من دغدغة نرتاح اليهـــا ، وننظـر الى آثار الفنانين لكي نقف على جوهر الحياة • اما اذا عجز المتحـــدث عـن الافصاح ، وفقدت الموسيقى الوسيلة التي تحدث فيها التأثير ، وخرس الفن فما عاد يبين ، فمعنى ذلك اننا نعيش في فوضى لا حد لها •

الأستنتاجات الخاطئة في الأغلاط الشائعة

لم يكن الوعي القومي قبل أكثر من عشر سنوات خلت على ما هو عليه اليوم من استقطاب وتبلور وشمول ، وليس من شك في ان الفرد العربي نتيجة لوجوده وسط مجتمع متفسخ الى حد التهرؤ ومخدر برواسب ضخمة من التناقضات العميقة ومكبل بعادات وقيم فرضت عليه من الخارج فرضا ، اقول كان الفرد العربي نتيجة لهذا كله يحيا حياة عقيمة ، فارغة الى ابعد حدود الفراغ ، اتكاليا في اكثر اعماله ، لا اباليا في اغلب تصرفاته ، انعزاليا لا يحس بالمسؤولية ولا يشعر بها ولا يدرك ان عليه دورا او واجبا يقوم به تجاه نفسه وتجاه مجتمعه ..

وما من شك في ان اسباب كل هذا الركام من الفساد والتفسخ والتناقض والرواسب تعود الى اكثر من خمسة قرون مضت وما رافقتها من اهوال انصبت على الوطن العربي كله فمزقته على النحو الذى ورثناه، ومزقت الفرد العربي وجعلته اشبه ما يكون بالمسخ الذى لا يعي ذاته ولا يحس وجوده .. ولعل ابرز شيء يعزى اليه تقويض الشخصية العربية واماتة الروح الانسانية فيها هو دور التوجيه الاستعماري في ذلك بشكليه الظاهر والباطن .. فقد كانت اولى خطط الاستعمار واهمها تركيزا ابعاد الفرد العربي عن التحسس بقضاياه العامة ، واماتة الوعي القومي لديه وتجريده من الروح العربية الاصيلة او مسخها على الاقل ، وتحطيم

كيانه النفسي لكي ينمو الفرد على النحو الذى يراد له ان ينمو ، ضعيف الكيان ، هزيل الشخصية ، فاقد الاحساس ، محطم النفس ، مضطرب الذهن ، غير مكترث لواقع مجتمعه الغارق في البؤس والشقاء ، وغير ملتفت لعملية الهدم التي تسري في كيان وطنه العربي كله ، ولا لأي شيء آخر سوى ان يدور في دائرة تضيق ثم تضيق دون ان يدري لماذا ! .. لا يهمه شيء سوى ان يحقق نوازعه الذاتية المغلقة ويرضى شهواته البدائية سواء كان ذلك على حساب مجتمعه او حساب وطنه ، لا يهمه ذلك بقدر ما يهمه تحقيق مآربه المتفسخة ..

وبما ان الاديب او الشاعر او الفنان هم أفراد من هذا المجتمع لايمكن بحال ان ينفصلوا عنه او يورثوا اشياء غير موجودة ، لذلك فقد كانوا يعيشون تناقض مجتمعهم بكل صوره والوانه ، او انهم ، بصورة أدق ، قد فتحوا عيونهم على مثل هذه التناقضات الضخمة والقيم المتآكلة العفنه . والانقسام الكبير في كل شيء فاصيبوا بما يشبه التشاؤم من كل ما يجري ويقع ، والسخط على كل ما يجري ويقع .. ونتيجة للفراغ العقائدي الفكري الذى كان يسود الوطن العربي كله آنذاك ، اللهم سوى نداءات ضعيفة كانت تنبعث بين الحين والحين منذرة محذرة ولكنها لم تكن تملك القوة الكافية لأحداث الرجة المطلوبة ، فقد انكمشوا على أنفسهم وانغلقوا على ذواتهم يستمدون منها رؤى ضبابية وأخيلة مبهمة لا تعبر عن واقع ولا تفصح عن كيان ، في حين اندفع البعض الاخر ، وقد استطاع بانعزاليته الكبيرة عن واقعه ومجتمعه ان يكتب أدبا صرفا منبعه اللجين الذى يسيل من القمر وزغردات البلابل العذبة في السحر ، وهمسات القبل بين أغصان الياسمين .. فكانت المعارك الادبية (العنيفة) التي تنشب آنذاك في أحسن الاحوال حول ايهما ابلغ تشبيها : القمر المثقل بحمولة العنبر ، ام الاسياف التي هي ليل تتهاوى كواكبه ..

ثم ان تلك النداءات تتعالى رويدا رويدا في الوطن العربي كله ،

نداءات قوية صريحة جريئة تحاول بكل ما لديها من تمرد وثورية ان تملأ ذلك الفراغ الرهيب الذي يشكو منه الفرد العربي فتعيد له كيانه وشخصيته وذاته .. ثم بدأت الاحداث تتتابع على الوطن العربي ، احداث ضخمة وهائلة كانت بمثابة الهزة للفرد العربي ، هزة جعلته يقف من كل تلك التناقضات التي يحياها مجتمعه موقفا متحديا ثوريا الى حد ما .. فبدأ اول ما بدأ يعي كيانه وذاته ، ويدرك انه كائن حي له الحق في ان يحيا الحياة الحرة الكريمة ، وبما انه يعيش وسط مجموعة من البشر تربطه بها روابط تاريخية وحياتية كثيرة مداخلة ومتشابكة لا تنفصل ولا تنفصم، تقاسي نفس الانسحاق الوجودي الذي يقاسيه ويعانيه ذات المصير المشترك ، فقد ربط مصيره بمصيرها واندفع متحديا الظلم والطغيان والارهاب ... وليس هنا مجال للبحث في مدى شمول هذا الوعي وعمقه ، ولكن البداية الصميمة ذات الاسس القوية والجذور السليمة تؤدي حتما الى النهاية الطبيعية المرتقبة ..

فالفرد العربي اذا بدأ يعي ذاته ويعي وجوده فانتفض ليحقق كيانه .. فما هو دور الاديب او الشاعر او الفنان في هذا الزخم من الوعي الوليد ؟ .. هل يقف امام هذه الاحداث الضخمة المتلاحقة والوعي المتنامي لا ابالي انعزاليا وكأن الامر لا يعنيه ام انه يدرك واجبه كانسان يتمتع بمقدار كبير من الاحساس والثقافة فيتقدم ليأخذ دوره ويشارك الجموع الزاحفة نحو النور مصيرها المشترك الواحد ؟ .. فيعمل على ازالة ما تراكم على الذات العربية من صدأ ألصقه بها واقع فاسد وماض مشوه ، ويسهم في البناء الذى يحتمه عليه كل شيء فيه وحوله .. هل يفعل ما ينبغي عليه ان يفعل كفرد قيادي يتمتع بقدر كبير من الثروة الذهنية والنفسية فيسهم مع الشعب في معركته الكبرى ضد الفساد والطغيان والارهاب والكبت والتناقض الطبقي والاجتماعي والسيطرة الاحتكارية والاستعمارية والتجزئة المفروضة على وطنه العربي ام يظل على خدره

اللذيذ في دورانه حول نفسه وذاته ؟! ..

اجل ، لقد وجد بعض الافراد من الادباء انفسهم فجأة أمام هذا الزخم من الاحداث الضخمة المتلاحقة فاغرقتهم الرجعية وما عادوا يدرون اى شيء يصنعون ... ايظلون غارقين في اجوائهم الضبابية التي صنعوها لانفسهم وتشاؤميتهم التي استقوها من ذواتهم ، امينددفعون ليأخذوا مكانهم في البناء ويؤثروا الحقد المقدس في الجموع الثائرة على كل ما هو فاسد ولا انساني ؟.. ان لزغردة البلابل جمالا ، وللمعان النجوم جمالا ، ولكن البناء ايضا جمال ، ومشاركة الجموع مسيرتها الكبرى نحو الخير والحق جمال اكبر ، فماذا يفعلون ؟ ..

لقد وقع بعضهم في تناقض نفسي كبير فلم يعودوا يدرون معه أي شيء يصنعون ، فلا هم يملكون الثروة الذهنية العميقة ولا الاستعداد النفسي حتى يواجهوا هذا الزخم من الوعي القومي الجارف ، ولا هم يستطيعون أن يكونوا بمعزل تام عن كل ما يجري حولهم ، فراحوا يرتدون جلودا غير جلودهم ويكتبون عن الوعي العربي والكيان العربي كتابات هابطة كل سطر فيها يصرخ بالكذب والتزوير الصارخ لمعتقد لا يحس به قائله ولا يشعر به اطلاقا . في حين انطلقت الطليعة الثورية تعمق بكل ما لديها من عطاء وقابليات وخصب نضال هذه الامة وترسم للجموع الزاحفة الى هدفها الكبير طريقها الشاق الطويل ..

وبعد ، فلست أدري اذا كانت هذه المقدمة السريعة المختزلة للواقع الذي كنا نعيشه وواقع الاديب بالذات تصح أن تكون بدءا للتساؤل فنقول : هل ان الشاعرة الفاضلة نازك الملائكة(*) قد التفتت الى هذه النقاط أو الى بعضها بشيء من التجرد أو انها وضعتها أمامها ثم توصلت بعد ذلك كله الى أن التزام الاديب أو الشاعر أو الفنان لقضايا مجتمعه ووطنه والانسانية

(*) يراجع مقال « الاغلاط الشائعة في تعريف الادب القومي » للاستاذة الشاعرة نازك الملائكة في العدد الثامن ١٩٦١ من مجلة الآداب البيروتية .

جمعاء وتبني هـذه القضايا جميعها على نحـو متكامل لا تنفصل عـن كيانه ووجوده دعوة منحطـة منشؤها شـيوعي روجها كثير مـن القوميين ببراءة وحسن نيـة ..

لقد كنت اخمن وأنا اقرأ مقال الشاعرة الفاضلة انها ستتناول بشيء من التفصيل الواقـع المؤلم الذي نعيشـه ودور الاديب في الاثارة والقيادة والبناء ، ولكن لم أجـد سوى بعض الاستنتاجات الخاطئة لمقومات هزيلـة لست أدري كيف توصلت اليها الشاعرة الفاضلة .. ذلك لانها تعلم تماما دور أقلام كثيرة سواء كانت شرقية أم غربيـة ، لعبت دورا كبيرا ويكـاد يكون رئيسيا في التخلص من ظلم كبير وطغيان رهيب وعبودية شنيعة كانت تسيطر على وطنهم وشعبهم وذلك قبـل أن يكون للشيوعية كيـان ، فهل يصح أن تقول عن اولئك المفكرين العظام الذين استطاعوا بما لديهم مـن امكانيات ذهنية كبيرة وطاقات ثورية عظيمة أن يلتزموا قضايا امتهم ووطنهم ويقودوا شعبهم الى الثورة والتمرد ، انهم منحطون يكتبون أدبا هابطا .

ثم ، اذا أردنا ان نأخذ الموضوع بشيء من التجرد ، فكيف نستطيع أن نصم أديبـا يلتزم قضايا معينـة قد تكون أخلاقيـة أو حياتية أو حتى جمالية صرفة انه أديب منحط يكتب أدبا هابطا .

ان الدخول في مثـل هذه الناحية مـن الموضوع قد يقودنا الى بحث ذهني فنتوصل بعد تدليلات كثيرة ان اصرار الاديب في أن يلتزم أي نوع من المشاكل المطروحة أو القضايا العامة وفي أن يبقى حرا حرية مطلقة هو بحد ذاته التزام .. وهل تستطيع الشاعرة نفسها أن تنكر انها تعنى بلون واحد مـن الشعر ؟ ثم هل تستطيع الشاعرة أن تكتب أدبا لا أخلاقيـا ؟ بالتأكيد لا .. لماذا ؟.. لانها ترفض اللا أخلاقية وتعتبرها منافية للحياة ، ولكن لماذا تعتبرها كذلك ؟.

احسب أن الموضوع من الشمول والعمق بحيث لا يسمح لاي فرد كان أن يطلق عليه أحكاما اعتباطية على النحو الذي وقعت فيه الشاعرة

وليس هذا فقط ، ففي المقال تناقضات تجعل القارىء يتساءل بألم أين هي ثقافة الشاعرة الفاضلة التي كان يجدها في أغلب ما تكتب وأين هو تجردها وموضوعيتها ؟.. ذلك لان القارىء يدرك منذ بدئه قراءة المقال أن الشاعرة تعتمد على أفكار ساذجة روجها بعض المهووسين الذين لا يعتد بهم ولا يمكن أن تتخذ أقوالهم نماذج تقاس عليها .. فهي تقول مثلا ان من جملة الاغلاط الشائعة في تعريف الادب القومي ان أغلب كتابنا قد دخل في وهمهم أن الاديب اذا تناول قضايانا القومية تناولا مباشرا عدوه أديبا عربيا وأما اذا لم يكتب في تلك (الموضوعات) فانه في نظرهم ليس أديبا قوميا .. والخطأ في هذا الاستنتاج انه ليس صحيحا ان كل من يكتب في القضايا القومية عد أديبا قوميا يتحسس بعمق قضايانا العامة والخاصة ويعي دوره في تجسيد أماني امته وامالها في الحياة الحرة الكريمة .. فالاديب العربي مطالب قبل كل شيء في ألا يقحم نفسه في قضايا لا يحسها ولا يشعر بها اطلاقا ، وألا يمتهن نفسه بالمناداة بمبادىء لا يؤمن بها ، فالذات العربية النقية ليست بحاجة الى مزور أو دجال أو مرتزق يتقمص الثوب القومي لغايات دنيئة فلديها من روحها العميقة وتراثها الضخم خير معين تمتح منه ، ولكن الصحيح ، وهو الاستنتاج الذي توصلت اليه الشاعرة وأرادت أن تعيده على نحو معكوس ـ ان الاديب غير (العربي) والذي يكتب في قضايا (معينة) مفروضة ، غريبة ، بغض النظر عن كونه صادقا أو كاذبا ، دجالا أو منافقا هو وحده الذي ينظر اليه من قبل (فئة معينة) على انه أديب اجتماعي .. أما أن يعد كل اديب يكتب في القضايا القومية أشياء هزيلة كاذبة ، أديبا قوميا ، فسذاجة لم يناد بها سوى اولئك الذين فقدوا توازنهم النفسي والذهني ، وقد أشرنا الى أمثال هؤلاء في غضون هذه الكلمة .. ولكن الشاعرة الفاضلة قد اتخذت أقوالهم الهزيلة تلك على انها هي السائدة المتمكنة ولست أدري كيف استطاعت أن تفعل ذلك .

ثم ان الشاعرة سرعان ما تبلغ ، نتيجة لتلك الكتابات الهابطة الى هذا التساؤل المحير : وهل يفقد الاديب العربي روحه القومية اذا هو لم يكتب على الاطلاق في قضايانا القومية ؟.. ومن قال انه يفقدها .. ان الروح العربية لا تفقد اطلاقا ، انها رغم كل الشوائب والمؤثرات الغريبة تظل في لمعانها واشراقها ، لانها تستمد كل قوتها من روحها الاصيلة .. ولكن السؤال في رأيي يطرح على هذا النحو : هل بامكان الاديب العربي ، وهو يعيش بكل وجوده وكيانه هذه التجربة الضخمة التي يمر بها وطننا العربي في انطلاقته الرائعة نحو النور وتوكيد الشخصية العربية أن يظل في عزلة عن واقع امته ومصير وطنه .. فلا يصل اليه التمرد ولا تعرف الثورة طريقها اليه وكأننا لسنا في معركة ضارية مع الطواغيت ووحوش المستعمرين ؟!.. اذا استطاع فهل هو حقا فرد يعيش فوق أرض عربية وأنجبته أم ممزقة الاوصال مطعونة بألف نصل ؟.. أي شيء أكون اذا كانت لا تهزني ولا تثيرني ولا تحرك فيّ انسانيتي الجرائم البشعة التي يرتكبها الوحش الفرنسي في الجزائر العربية منذ عام ١٨٩٠ ، والمجازر الرهيبة التي يمارسها الاستعمار الانكليزي في وطننا العربي كله منذ عشرات السنين حتى الان ، في حين توقظ في كل احاسيسي ومشاعري رؤية كلب مختلط بدمائه دعسته سيارة في قارعة طريق ..

ان الانعزالية التي تسيطر على بعض الادباء هي ليست وليدة يومها ، كما انها ليست طارئة . انها نتيجة ذلك الركام الضخم من الظلام الذي ورثناه ، والاحداث المرعبة التي حاولت أن تقضي على كل ما فينا من تفتح وانطلاق .. ان معركتنا الان معركة ضارية .. معركة وحشية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان . معركة بين الموت والحياة ، بين الجمود والانطلاق ، بين التحجر على قيم متوارثة دخيلة والتفتح المطلق على الوجود الرحب .. والاديب المرهف ذو الاحساس الكبير هو قائد هذه المعركة ومؤرث اوارها فكيف يتنكر لكل ما هو محاط به ؟!

كم كنت أتمنى لو أن الشاعرة الكبيرة قد تروت قليلا في كتابة هذا المقال بالذات ، أو في الكتابة عن الوعي القومي أو في الاشياء التي لا تحسها .. فلو انها ظلت تكتب عن البعد الرابع مثلا ، أو عن المعاني الرائعة في الشعر الشعبي لظلت كتاباتها على ذلك المستوى من العمق والموضوعية ، ولكنها شاءت أن تقحم نفسها في أشياء لم تحسها فوقعت في مثل تلك التناقضات الساذجة ، ولعل أجمل تناقضاتها قولها « لعل أصدق الادب قومية هو الادب الذي لا يدري انه قومي » فمثل هذا الاستنتاج المضحك يقودنا الى أن نقول « ان ميزة الفرد العربي هي أنه لا يدري انه عربي ولا يدري بعد ذلك انه يكتب أدبا عربياً .. في مسرحية لموليير يقول أحد شخوصها لاخر هازلا ما معناه : ان الكلام ينقسم الى قسمين شعر ونثر وأنت تتكلم النثر ، ففرح صاحبه فرحا عظيما وقال : وهل أنا أتكلم النثر منذ أربعين عاما ولا أدري ؟.

ان قبول فكرة ان أصدق الادب قومية هو الادب الذي لا يدري انه قومي تحمل في غضونها نكتة ضخمة لعل الكاتبة الفاضلة لم تقصدها .

وبعد . فلس هذا كل ما ورد في المقال من استنتاجات خاطئة ولكنا في رأينا قد تعرضنا لاهمها .. ونرجو مخلصين ألا نكون قد أغضبنا الشاعرة الكبيرة ، فهي شاعرة ولها مكانتها المرموقة في نفوس الادباء والشعراء العرب ولن يزعزع مكانتها هذه شيء سواء كتبت شعرا قوميا أم لم تكتب ، ولكن الذي نرجوه منها ومن اولئك الادباء الذين يكتبون في القومية وهم لا يحسونها احساسا قويا صادقا أن يتجنبوا الكتابة فيها ، حتى يتم التفاعل العميق والتجاوب الصادق بينهم وبين واقعهم ، وحينذاك فقط سيدركون أنهم قد وعوا ذواتهم وأصبح لوجودهم في الحياة معنى غير زائف .

النقاط والفواصل .. في الشعر الحديث

كنت ولا أزال اشعر بتهيب كبير اذا وجدت نفسى أمام حمم ضخمه تهدها روح متمردة ، أو تمزق وحشي ينفثه وجدان حي ، أو اشراقه صافية تنفلت من نفس عذبة ، أو نغم يصدر عن جراح دفينة في هيئة شعر يتدفق من معين خصب يجسد كل هذا التحرق الفذ بمثل هذا الهدير الجارف والايقاع الخاص ... ولا أكتم أني أشعر بتهيب أكبر اذا حاولت ، وأنا متحد مع الجو الموسيقي للقصيدة ، أن اقوم انحرافا احسه ، أو تخلخلا ألمسه ، أو ابدي بعض الملاحظات عن أبيات أجدها ضعيفة تهبط بالجو العام للقصيدة .. ذلك لاني أتفق مع كثير من الشعراء ، ان الشعر تمزق واحتراق وتجربة نفسية وشعورية يرتبط بالشاعر داته ارتباطا تاما حسب امكانياته وطاقاته وانفعالاته وثقافته هبوطاً وصعوداً قبل أن يكون دراسة أو نظرية تخضع لذهن فاحص مدقق .. وانه بعد ذو أبعاد متشعبة عميقة قد يعجز المنطق الصارم عن تفسيرها .. والتحسس بآلام الشاعر العميقة ، وادراك ما رافق الشاعر من ارهاصات وثورة وتمزق ، لا يوجب بداهة بلوغ الحالة النفسية والوجدانية والذهنية للشاعر ، أثناء الذهول الفني ، بلوغا حقيقيا مساويا له .. وأتفق معهم أيضا ، ان الناقد غير الشاعر ، ذا الثقافة الشعرية الجيدة والرؤيا الفنية الصادقة ، والتذوق الشعري الصحيح قد لا يستطيع ، رغم كل امكانياته ، أن يواكب الام الشاعر الحقيقية أثناء الوضع وقبله ..

أجل ، انه يستطيع بما لديه من حس فني مرهف ، وتذوق عميق ، وثقافة شعرية كبيرة أن يكتشف حالات غامضة للشاعر ، وأن يتتبع حالته النفسية منذ بدء تحسسه بالنشيد الى حين الولادة ، وما رافق حالة الوضع من اغراق تام أو يقظة واضحة ، ولكن ، مع ذلك ، تبقى زاوية مجهولة لا يستطيع بلوغها .. تبقى المعاناة نفسها • المعاناة الحقيقية للشاعر وما يمتزج معها من شعور حسي يرتبط بحالته وظروفه الخاصة .. ومن هنا نفهم سر الكثير من التفسيرات الغريبة لمعان لم يكن يقصدها الشاعر ، وحالات نفسية لم يكن يحسها اطلاقا .. وهم لذلك يحملوّن القصيدة التي يحاولون نقدها ، نتيجة تشبعهم بموازين نقدية غربية ونظريات ذهنية فلسفية ، جوا غريبا لا يضمها ولا يصدر عنها ، ومعميات هزيلة لا تتصل باحساس ولا تلتقي برؤيا شعرية صادقة .. ومن هنا أيضا نفهم سر تلك البسمة الهازئة التي ترتسم على شفتي الشاعر الحق وهو يقرأ مثل هذه التهاويل الذهنية الغريبة .. يقرأ ، ثم يبتسم ثم يعود الى رؤياه الصافية ، ومعاناته المدمرة ، معاناة شاعر يتمزق .. يعود الى المعين الحي للنبع المتدفق .. انه بحاجة الى من يخلص له ، يمنحه ذاته كلها ، يتلمس معه الجرح الذي ينزف منه ، يتحسس بصدق بشاعة الصديد المتجمع في صدره كالبحيرة .. لا الى تدليلات هندسية ورموز كرتولوجية وغيرها من التسميات التى لا يعرف لها حسا في أعماقه .. انه بحاجة الى شاعر يدرك معه لماذا كان جرير يتقلب على الرمل قبل أن ينتفض صارخا « قتلته ورب الكعبة » حين بلغ قوله « وغض الطرف انك من نمير » .. انه بحاجة الى من يتحسس بعمق فرحة ذلك الشاعر الذي ما كاد يفرغ من وضع قصيدته حتى انطلق خارجا وظلام الليل كان ما يزال يختلط ببياض النهار ليغني ذاته على أول من يصادفه حتى وان كان بوابا .. لا الى نظريات ذهنية وموازين عجيبة لا تربطها بتهويماته وأحاسيسه ومعاناته رابطة أو سبب ..

أجل ، اني أستطيع أن أتحسس عمق الالم الذي يعانيه الشاعر وهو يزفر قائـلا :

« كلما ناء قيد جاء قيد
رب أيـــن المفر »

وأستطيع ان ألمس ضخامة التمزق النفسي لديه وتحرقه الى الانطلاق وهو ينشـد :

« سويتني روحا تمرد لا يطيق الارض مثوى
وأنا التراب! فكيف صرت هوى وتعذيبا وشجوا»

وبامكاني كذلك أن أتتبع كآبة الشاعر الموئسة ومدى التشاؤم الذي يغلف نفسه وهو يقول :

« رأيتك تمشي في المسـاخر شاعرا
وتاجك محطـوم عليك مكمـد
وروحك ممسـوخ ونورك ذاهـل
وشـعرك بالغـل الدنيء مصفـد »

وان اتشرب معـه الرؤى الضبابية التي تحيط بـه ، وينابيع الظلام التي تنسكب في روحه وهو يقول :

« اطفيء ضياءك واظلم مثـل اظلامي
وخلني فـــي كوابيسي وأوهامي
قرب نـيرة ، يا ليـــل ! توقظنـــي
الى العفـــاف فأنسـى عبء آثـــامي »

وبامكاني أن أتعمـق الصورة الحيـة التي أرادها الشاعر للفنـــان في قولـه :

والصخور الجسام ناتئـة الانياب تدمـي أقـــدامه وهـو تائـــه

ورؤوس الاشـــواك ترتـد عنه وعليهـــا ممزق مـــن ردائـــه
والافاعي تفح مـن كل صـــوب نازعات الـى امتصاص دمـــائه

وان اتحد مع الموقف الرائع الذي أراد الشاعر رسمه لفتاة مطعونة القلب والكرامة وفتى هازل ماجن بمثل هذه الدفقات النفسية المتتابعة :

وصرخت محتدما قفي
والريح تمضغ معطفي
والذل يكســو موقفي
لا تعتذر يا نذل .. لا تتأسف ،
انا لست آسفة عليك ،
لكن على قلبي الوفي
قلبي الذي لم تعرف .

وان اخطط صورة مقاربة للبطل الفذ الذي أراد الشاعر أن يصوره لنا وهو في اوج صراعه مع الطواغيث :

ســلام على مثقـــل بالحديـد ويشـمخ كالقـــائد الظـافر
كأن القيـــود على معصميـه مفـــاتيح مســـتقبل زاهـر

أجل ، انني أستطيع أن أتمثل واتحسس وارسم وأتصور وأتتبع ضخـامة الاحاسيس ، وعمق المعاناة ، وجمال النغـم ، وصدق الشـعور ، للشعر الحي الصادق ، ولكن لا ابيـح لنفسي تمزيق الشعر ، أو حتـى تفسيره ، ورائع الشعر عندي ما يجد طريقه الى النفس منـذ أول التقاء ، حيث يتغلغل فيها ويتحد معها ويترك فيها أثرا لا يمحى .. تتشربه ، وتعيه، وتحسه قويا عنيفا ولكنها تعجز عن التعبير عنه منطقيا ..

هذا ما كنا ندركه تماما .. كنا نشعر بجلال الشعر وروعة الاحاسيس المتدفقة .. كنا نقف أمام الشعر الحي وقفة خشوع واحترام .. نتلمس القـوة والضعف ، والرقـة والعنف ، والضخامة والهبوط ، ولا نسـمح

لانفسنا تجاوز الملاحظات العابرة وان كانت صادقة ، والنقدات الطارئة وان كانت صحيحة ، رغم كثرة ما قرأنا من شعر جيد بلغ حد الروعة ، وتافه ينحدر الى اللغو السخيف .. وما قرأنا من نقد له ودراسات عنه .. أما في السنين الاخيرة ، فقد تغير الامر تماما .. وانقلبت المقاييس رأسا على عقب ، وشوه ما كنا نحسه من جمال وقوة وثورة وانطلاق وفن في الروح الشعري الى كلمات ونقاط وفواصل وعلامات استفهام وتعجب .. وبدأنا نقرأ صفحات كثيرة عن هذه النقاط والحروف .. ان كل كلمة ترمز الى معان عجيبة تقاس طولا وعرضا وارتفاعا وعمقا ولا أعرف ماذا .. والنقاط والفواصل وعلامات التعجب والاستفهام مدلولات حسية ونفسية وذهنية وابعاد هندسية وكرنولوجية وغيرها .. وبدأنا نقرأ عن هذه النقاط والفواصل وعلامات التعجب والاستفهام أشياء ليس من الضروري أن تفهم أو تجد من يتذوقها بقدر ما تريد أن توضح للغافلين الابعاد العميقة لهذا النوع من الوباء الجديد .. وبدأت المجلات بدورها ، وتمشيا مع مرض العصر تموج بمثل هذه النقاط العميقة ذات الابعاد الجذرية المتشعبة .. وأصبحت الكلمات بفواصلها ونقاطها مودرنزم العصر .. من لا يدرك عمقها ليس مثقفا ، ومن لا يكتب عنها معمقا ليس ناقدا ، حتى بتنا ، خشية أن نرمى بالجهل والتبلد الحسي والذهني ، نصفق لاول نقطة نراها ونقول ، عظيمة هذه النقطة ، انها ذات دلالة نفسية بعيدة ، والشاعر لا يقصدها مجردة وانما هي مرتبطة بالحضارة البشرية وقلق العصر السائد وبالحس الداخلي والخارجي للشاعر .. أما هذه الفاصلة فهي عالم كامل ، كون بأجمعه .. وصرنا اذا وجدنا هذا الشيء مكتوبا في مجلة كالاديب :

والجحش ينهق في السكون
غزلا لجحشته الحنون

ام البنين

أو هذا الدود الذي زحف على «الاداب» مرة
القمل والموتى يخصون الاقارب بالسلام ..
او هذا التقرير المدهش
انا عامل ادعى سعيد
ابوايا ماتا في طريقهما الى
قبر الحسين

أو نجد هذا اللغو منشورا في مجلة اخرى :
والعنكبوت .. يدور في الرأس الحليق
طين عتيق ...

وغير ذلك من كلام كثير سواء ما ينشر في المجلات والصحف أو ما يضمه كتاب سميك الغلاف ملون الورق .. اقول ، اننا ما نكاد نرى مثل هذا الكلام حتى تهتف .. رائع هذا الجحش ، انه تجديد لم يبلغه الاوائل ويقصر عن فهمه الجيل الحاضر .. ثم نمضى في قراءة ما يسند هتافنا هذا من دراسات معمقة عن حيوية هذا البرغوث ، ونشاط القمل ، وكيف انه قد تجاوز حدوده المرسومة الضيقة الى الحدود البشرية العامة ، وأصبح بامكانه أن يرسل التحايا كتجربة اولى .. انه مرض العصر ، ولم يكن غرورنا الادبي يسمح لنا تجاهله أو الوقوف منه موقف الجمود .. ألسنا مثقفين .. ألسنا شبابا نحمل روح التمرد والثورة على الجمود والقيود والاغلال ؟؟ وهذه الدراسات الطويلة عن الفواصل والنقاط التي تتخلل القمل والعنكبوت ! على أي شيء تدل اذا لم تدل على عمق واصالة هذا النوع من المرض ؟.. ان ما نحسه من رفض وجودي له لا يعني غير أمر واحد .. التحجر النفسي والذهني فكيف نرتضي لانفسنا ، أو لغرورنا الادبي أن نكون كذلك .. ان هناك خللا يكمن في أحدنا ، وهو بالتأكيد ليس في الفواصل والنقاط ..

مضت فترة ليست بالقصيرة ونحن في مثل هذا التيهان .. نخشى

حتى الهمس بما يحسه أحدنا تجاه هذا الفوران العارم .. في حين اتخذ كثير من الشعراء الصادقين موقفا صامتا ، وحتى اذا ارغموا على الاجابة فقد كانت أجوبتهم دورانا وابتعادا عما يوجه اليهم من اسئلة ، ثم بدأنا نجد من لم يعد يطيق مثل هذه الاقنعة الزائفة فراح يجهر برأيه بجرأة وبدون خوف ، اذ لم يعد يهمه سواء رمي بالجهل والتبلد أم لم يرم ما زال يعتقد أن الفن رسالة سامية وضخمة وليس باليسير مسخها أو العبث بها .. ثم بدأ الهمس يعلو أكثر فأكثر .. ثم تحول الهمس الى سخرية وقهقهة مزدوجة على القمل والجحش والعنكبوت وعلى اولئك الذين يترسلون في الكتابة عنها بمعميات ومقاييس لا تقود في النهاية الا الى ثقافة موهومة وذهن معقد .. ثم راح بعض الخبثاء يعقدون الحلقات ليملأوا الصفحات بالرموز والفواصل .. ثم يرسلونها الى أية مجلة لتنشر في أول عدد يصدر .. وليست الفضيحة الادبية التي نشرها « معن زيادة » في عدد الاداب العاشر من هذه السنة هي الاولى من نوعها ، فلقد سبقتها فضائح كثيرة أعلنت في أوقات متفاوتة وكلها تندر وسخرية بهذا الوباء الجديد ..

صليب بلا مسامير .. وانتظار معلق من ثدييه
وما أشبه ذلك من لغو ..

ولا أكتم بعد هذا ، ان ما دفعني الى كتابة هذه الكلمة ، ليست الفضيحة الادبية التي أشار اليها السيد « معن زيادة » ولكنه النقد الذي كتبه ايليا حاوي لشعر العدد الماضي من الاداب .. فقد وجدت . أنه يصح أن يتخذ انموذجا لاولئك النقاد الذين يتسترون وراء أقنعة من الثقافة الموهومة ، حتى اذا حدقت فيها باصرار وتحد لم تجد وراءها غير تعابير ملتوية داخلية ضبابية معقدة لا تهدف الى معنى ولا تقود الى حقيقة ، بالاضافة الى ما يحسه القارىء من اصرار مقصود في اظهار جماعة من اصدقائه على انهم هم وحدهم الشعراء المدركون لقلق عصرهم

وما عداهم أطفال يتراشقون الطين من ساقية راكدة .. فهو لذلك لم يرض بما كتبه الاديب الرصين الاستاذ محي الدين محمد عن قصيدة « اختناق » لرفيق الخوري المنشورة في عدد سابق من الآداب وراح يتهمه بقصور الفهم والذوق ، لانه لم يدرك الابعاد العميقة والرموز البعيدة والاجواء النفسية للشاعر رفيق وهو يقول :

« تعضني امي التي انداؤها حجارة » .

ولم يستطع أن يكتشف ان في عصب الشاعر نبضا صادقا ، في حين انه قد اكتشف هذه الحقيقة وحقائق اخرى كثيرة أهمها في رأيي استيعاب القصيدة ، أي « تعضني امي التي انداؤها حجارة » لكل ما يعانيه العصر الحاضر من قلق وتناقض وغليان ، ثم راح يدلل على هذه الابعاد والرموز والرؤيا الخاصة ، والمعاناة والشمول . و . و . الموجودة في قصيدتي « اختناق » و « أيام بلا ... زوجة » ويقول بكل جرأة واصرار ان شرفة الشاعر في قوله :

شرفتنا مرهقة تنام في الغروب
كانها ارملة عجوز ...

« قد اوشكت ان تتخلى عن ماديتها ولم تعد تعبر عن ذاتها بقدر ما تعبر عن ذات الشاعر وتقمصها في المظاهر المادية ، وكذلك العجوز فهي انعكاس حي خارجي لروح الكآبة والانقباض والوحشة .. » فالشرفة اذن كما يقول السيد ايليا حاوى قد تخلت عن ماديتها الصماء الجامدة ، ولكنها مع ذلك لم تعد تملك القدرة على التعبير عن ذاتها .. ومع ان القارىء قد يجد ما يحس في البيت الاول ولكنه يصدم تماما حين ينتقل الى الشطر الثاني ، فبدلا من ان يتابع الشاعر الحركة الانفعالية لاحاسيسه ويستمر في اعطاء الشرفة المعنى الحسى الذي اراده لها ، الا انه حجرها تماما بتشبيهه لها بالارملة العجوز .. فلم تعد الشرفة سوى انها ترقد كأرملة عجوز .. ولكن السيد ايليا حاوى يرى غير ذلك ، فهو يصر

على ان الشاعر قد اورد العجوز بطريقة فذة ، فهي لذلك انعكاس حسي خارجي لروح الكآبة والانقباض والوحشة ، وانا اخمن ان الناقد قد غفل عن نقطة جوهرية ، فقد اورد العجوز على انها مجرد عجوز ولم يذكر كانت ارملة ؟ . فلو ان العجوز كانت ما تزال بعصمة زوج ، فانها كانت تعجز عن اعطاء ذلك الانعكاس الحسي والخارجي لروح الكآبة .. ولكنه تواضع الناقد الا يرهق القارىء بما لا يفهمه . واني لاتساءل الان ، هل كان بامكان الاستاذ محيي الدين محمد ان يفهم كل هذه الامور عن الشرفة والعجوز ولو لم يتول الناقد السيد ايليا حاوى مشكورا تفسيرها وتوضيحها ؟ .. وهل كان بامكانه ان يفهم ان شرفة الشاعر المتخلية عن ماديتها وعجوزه العاكسة لروحه الكئيبة هما في الواقع « امتداد لنفس الشاعر واتحاده معه وانبعاث منه وليستا افتراضا ذهنيا » كما قد يخيل اليه ؟ .. ولكن السيد ايليا حاوى قد ادرك هذه الحقيقة .. وادرك ان اكثر القراء ، وقد يكون الاستاذ محيي الدين محمد منهم ، هم « من اصحاب المنطق الشائع القاصر » الذى لم يبلغ بعد سن الرشد القانوني للفهم .. فراح مشكورا يسهب في تبسيط الصور المتشابكة والاخيلة البعيدة التى تحتويها ضمنا قصيدة الشاعر رفيق الخوري ، ويقول لهم بكل تواضع ان قول الشاعر :

الشمس فوق جبتهي رصاص ..
الشمس من نافذتي نعاس ..

هو انعكاس لنفسه وتظهير لها وتجسيد للواقع .. واذا شك الاستاذ محي الدين محمد وغيره من اصحاب المنطق الشائع القاصر في وجود غلو في هذا القال فان السيد ايليا حاوى يرجع هذا الغلو المقصود « .. للمظهر الخارجي لاتحاد النفس بالمادة وتحريكها تحريكا نفسيا يبث فينا نشوة الانفعال الفني ، ذلك لان الشمس والاجراس بالاضافة الى الشرفة وما اشبه .. قد اكتسبت ابعادا انسانية فيما تقمصت بها نفس الشاعر فبدت

تلك الابعاد وكأنها نوع من الغلو في مقياس الفهم العادي ! .. ، في حين انها شدة في الانفعال .. فالشمس والاجراس وما اشبه !!.. هي في مقياس الفهم العادي اشياء سخيفة ولغو لا معنى له .. اما في مقياس الفهم العالي البالغ سن الرشد ، فهى اشياء عميقة وصعبة التذوق واتحاد في ومع الشاعر وانبعاث منه ..

كتب مرة الدكتور طه حسين مقالا بعنوان « يوناني فلا يقرأ » يرد فيه على الاستاذين عبدالعظيم انيس ومحمود العالم لغموض وجده في نقدهما له وابدى حيرته وعدم فهمه تعابير وردت في مقالهما ظنها الدكتور مغلقة لا تدل على معنى .. فما رأى الدكتور لو انه يعود الى ما جاء به السيد ايليا حاوى بالرموز ؟ واى عنوان يضع في مقدمة مقاله اذا هو اراد الكتابة عن الشمس والاجراس وما اشبه .. ..

وبعد .. فالى اين يقودنا مثل هذا الكلام .. واني لاتساءل بعد هذا كله ، لو ان السيد ايليا حاوى قد ملأ كتابا كاملا بمثل هذه الالغاز والمعميات ، وليس صفحة ونصف الصفحة من الاداب في الكلام عن هذا النوع من الشعر كما يسميه ، فهل يستطيع أن ينفخ في أي من رفاقه روحا حيا ويجعله يختال مزهوا فيصدق فيه قول (مورياك) « من هذا الذى يتكلم بخيلاء ويمشى بكبرياء » .. هل يستطيع ان يجعل بكل ما أوتي من حذلقة وتبجح ، من الدمية الهشة كائنا حقيقيا يحترق ويمزق ؟ .. لقد كتب اكثر من الكثير عن هذا النوع من الكلام بنقاطه وفواصله وعلامات تعجبه ، فاين هو ؟ .. ولماذا تلفظه الحياة نفسها بكل ما فيها من قوة وتدفق ؟ .. فما من شك ان الذى يتكلم بخيلاء ويمشى بكبرياء هو وحده الذى سيظل فارضا سلطانه وقوته وفنه واصالته .. اما (الحواة) فلقد ظلوا دائما وابدا حواة ولم يرتقوا الى أكثر من دلك .. انهم قد يستطيعون لفترة ما ان يوهموا الناس البسطاء ان ما يرقص امامهم استجابة لنغمهم السحري هو حية حقيقية ذات انياب وسم ، ولكن الحبل سرعان ما يقع فاضحا كل ما يحاوله (الحواة) من تهريج ..

وارجو الا يفهم من كلامي هذا اني ضد او مناهض لمحاولة التجديد في الشعر خاصة والفن عامة .. فالتجديد يعني التطور ، والتطور امر تفرضه الحياة نفسها فرضا ، وما باستطاعة احد ان يقف في وجه الحياة .. وانا اكبر واحترم شعراء كثيرين طوروا وجددوا الشعر العربي سواء باخيلته او صوره او معانيه او اهدافه او شكله وقفزوا به قفزات رائعة،ولكن الاعتراف بهذه الحقيقة شيء ، والتسليم لكل ما يقال من لغو مرصوف على انه شعر شيء آخر .. فليس الجحش ولا القمل ولا الشرفة المتخلية عن مادتها ، ولا الانتظار المعلق من ثدييه ، بقادر حتى آخر الدنيا على الدخول الى محراب الشعر المقدس وهي على هذا التحجر المادي الجاف .. واصدق الشعر عندي هو ما يحدثه في الكائن الحي الذواقة من تجاوب وانفعال وما يترك فيه من اثر وما يحفر في نفسه من جروح،يحسه ويتملاه ويعيشه ويتمثله ولا يرضى له تفسيرا منطقيا ذهنيا صارما ، ومتى ما صار الشعر تفسيرا منطقيا جافا فقد فسد ، ليكن الشكل حديثا او قديما ، فليس ذلك بالمهم بقدر ما يخزن المحتوى الشعري من دفقات فنية حية .. دفقات شاعر يتمزق ، تتفجر من اول لمسة .. اما الخشب فيظل خشبا رغم كل افانين (الحواة) ..

انهيار الخلق الانساني في الأديب المزيف

صدرت في العام الماضى من بعض الذين كانوا يدعون الادب والفن اصوات منكرة ، وحشية الرنين بدائية الاداء تدعو الى تحريض البسطاء على ترويع الامنين والفتك بهم ، فمن هو الاديب ومن هو الفنان ، هل من طبيعتهما الصافية واعمالهما الخيرة رؤية الدماء تسيل والجراح تخشب ؟ سؤال ليس من الصعب الاجابة عليه أو الاستشهاد ببعض ما قاله كبار الفنانين والمفكرين في تعريف شخصيته ، ولكنا مع ذلك لن نتعكز على رأى قيل فيه أو صورة رسمت له ، فليس ذلك من غرضنا في هذه الكلمة ، وانما سنحاول من ناحيتنا ان ندل عليه ببعض الصفات تشير اليه وتنطق باسمه ككائن انسان وهبته الطبيعة خير ما عندها من فضائل والهمته اسمى آيات الحب والجمال ..

فالفنان ، كما نفهمه ، هو الذى يعلو بنفسه عن كل ما في الحياة من صغائر ويسمو بعواطفه الى عوالم فسيحة زاهية تشع فيها انوار الحق ، وتخفق في جنباتها اجنحة الملائكة .. فالفنان هو الذى يرتفع بتفكيره عن توافه الامور وينزهه من كل ما يشوبه من تحجر وجمود .. هو الذى يرقى بروحه الى درجة من السمو عالية فلا ينشد غير الجمال ولا يطلب غير الحق ولا يرتضى بغير الحرية بديلا .. يشقى الشقاء كله اذا وجد من يتالم في هذه الحياة .. ويحزن الحزن كله اذا اصاب غيره ضر لم يقو على رده .. ينشد السلام ويطلبه لجميع البشر ويمتلىء قلبه الكبير

بالحب العظيم لجميع الناس .. ينفر من الصغائر ولا يقوى على رؤية قطرة دم تسيل من انسان لاى سبب كان .. هو ضمير امته الحي والمرآة الصادقة التى تنعكس من خلالها الام وامال شعبه وقومه .. هو العين السحرية لعظمة أمته .. يتمزق نفسيا ووجوديا اذا الت بشعبه كارثة او وقع عليه ظلم ، ويفرح الفرح كله اذا وجده ينتزع حقوقه المسلوبة ويفرض شخصيته القوية على من يريد انكارها او اهانتها ، ولا يتوانى عن ارخاص دمه لعزة أمته وكرامتها .. هو باختصار نبي صغير وهبته الطبيعة خير ما عندها من فضائل عظيمة .. وهبته الحب والخير والحرية والجمال والتضحية ، لتنصهر في بوتقة نفسه الكبيرة وتتفاعل مع بعضها وتخرج الى الناس نقية صافية كالشهد ، على هيئة شعر أو موسيقى أو رسم او ادب ، تكون اعظم غاياتها انارة الطريق وارشاد الناس الى الحق والصواب .

هذه باختصار صفات كما نفهمها .. الفنان الانسان .. فالشاعر فنان ، والناقد فنان والمتذوق فنان ، وكل انسان يحلم باشياء كبيرة وينشد لنفسه ولغيره السلام ، والحب والحرية ، والجمال والارتفاع عن الصغائر ، والتخلق بالمثل العليا ، فنان ..

ولكن هل استطاع بعض فناني ومثقفي العراق ان تكون لهم مثل هذه الصفات أو بعضها ؟ ..

ان دراسة هذه الناحية بالذات ، وبيان تخلف الادبب أو المثقف العراقي عن صفات الفنان الانسان ، وابتعاده عن الحق والخير والجمال ، وتمسكه بكل ما هو قبيح ورذيل ، وعلاقة ذلك بالمجتمع من تأثر وتأثير ، امر ليس من طبيعة هذه الكلمة التى نحاول او نوضح فيها الاسباب التى ادت الى غلبة الانسان المتوحش على الانسان الحق ، والى انسحاق كل القيم الخلقية والفكرية والحضارية في ذاته وفكره لتحل محلها وعلى نحو مشوه كل الرذائل الممقوتة ..

فانا اعتقد ان اية فئة لم تصب بامتحان كبير بعد ثورة تموز كالامتحان الذى اصاب الادباء والمثقفين والفنانين على وجه أخص في هذا البلد ..

اذ ليس من السهل تصور امكانية صدور كلمات القتل ، أو التحريض على ترويع الامنين من الناس بسبب عقيدة أو رأى ، من انسان يدعى انه يتحلى بشرف الثقافة والعلم . اجل ، قد يسهل تصور ذلك من فئة جاهلة أو غير واعية ، يهيمن عليها البؤس والشقاء والجهل ، فهى لا تستطيع ان تميز بين الخير والشر ، أو بين الحق والباطل ، فتدعو ، بسبب جهلها وبدائية حياتها وتفكيرها ، الى امور وحشية يانف منها الضمير الانساني الحي ، وتشمئز منها النفس المتحلية بالمثل العليا والاخلاق القويمة يأباها الفكر المستنير المتطلع دوما الى السمو والحرية والنور ..

اما ان تصدر مثل هذه الامور عن الانسان يدعى انه متعلم وانه مثقف وانه اديب فنان ، فهذا ما لا يمكن تصوره ابدا .. ولكن هذا ما حدث في العراق بعد ثورة تموز مع الاسف الشديد .. فقد كانت الثورة بمثابة محك كبير لتميع اولئك الذين كانوا بدون الادب والاخلاق . والاب خلق وتخلق قبل كل شيء .. .. واظهرت جوهر وحقيقة ما يبطن الشخص (المثقف) ويضمر من صغائر وبدائية في التفكير والشعور .. لقد كان الواجب ، كما كان منتظرا ، ان يقف رجال الفكر والادب والفن ، وقد رفع عنهم الكابوس الذى كان يهيمن عليهم ، وسحق الطغيان الذى كان يستحوذ على الشعب كله ، ان يقفوا في صف واحد قوي ، يدعون الى الحق والعدل ، وينادون بالسلام والحرية لابناء قومهم كبشر لهم الحق في ان يحيوا الحياة الحرة الكريمة ، لا ان يرتدوا جلود الذئاب واقنعة القردة ويمعنوا في تمزيق الشعب الى جماعات واحزاب همها الاوحد الاعتداء المنكر والقتل الوحشى ، والاتيان بكل ما هو محتقر ذميم ..

وان الشيء الذى يدعو الى الحزن الشديد ، ان الكثيرين ممن كان يشك في سلوكهم ويطعن في اخلاقهم ، في عهد الطغيان وألارهاب ، عادوا ليمثلوا دور البطولة الزائفة ، والوطنية الكاذبة في العهد الجمهورى .. فمن المتعارف عليه علميا ، ان بعض الناس يتزودون ببعض الطرائف الادبية والنكات العلمية ، لا لغرض تنمية مداركهم وتوسيع آفاقهم أو ليكونوا في

الصف الاول مع المنادين برفع الظلم عن شعبهم وامتهم ، وانما لكي يتخذوا من تلك المعارف اداة يتقربون بها الى الحكام بغية جاه دنيوي زائل ، او منفعة ذاتية تافهة ..

وقد كان من هذا النوع من الادباء في العهد المقبور عدد لا يستهان به ، همهم الاول والاخير ارضاء ذواتهم والتقرب الى الحكام الطغاة ، ومن ثم الدفاع المستميت عن كل الفواجع التي يركبتها اولئك الحكام على انها حق وعدل .. ولكن هذه الفئة من الادباء عادت ترتدى ثوب الوطنية وتدافع عن الشعب والحق والعدل والحرية بعد ان كانت تتمرغ تحت اقدام الطغاة .. ومن المؤسف والمحزن معا ان هذه الفئة وجدت من يؤيدها في هذا العهد ، ويدفعها على انها اللسان المعبر عن البائسين المعدمين ..

ان الاديب الحق ، والمثقف ، والمفكر ، والفنان ، هم ضمائر الامة التي ينتسبون اليها ، وهم المرايا الصافية التي تنعكس على صفحاتها النقية آمال واحلام الشعب الذي هم بعض افراده .. والمرآة النقية الصافية ، كما هو معروف ، تعكس بدقة وامانة المرئيات التي تلقاها .. فالطير الملون الجميل لا يظهر في المرآة على غير صورته الحقيقية ، وكذلك الحمار ، فانه لايمكن ان يكون في المرآة الصافية غير حمار .. ولست ادري اين كان يكمن الخطأ الكبير في كل ما حدث .. في المرئيات المعكوسة ام في المرايا العاكسة ؟.. فمن المعلوم ان اليد المرتعشة حين تمسك بالمرآة تعكس الصور التي تتلقاها على نحو مشوه ومهزوز .. فتعكس صورة القرد على نحو يغاير تركيبه الاصلي ، فيظهر في شكل جديد لا هو بالقرد ولا هو بالانسان ، وكذلك الطير الجميل ، فقد ينقلب في المرآة المقعرة الى غراب او ما يشبه الغراب .. ويقينا ان شعبنا العظيم لم يكن يشابه تلك الصور التي كانت تحاول ان تعكسها تلك المرايا .. فهو انبل واسمى من ان يدعو الى بدائية العمل ووحشية السلوك .. وهو كشعب صابر ، عرف الظلم وقاسى الطغيان لا يمكن أبدا ان يمارس ظلما أو يصفق لطغيان ، ان كل ما يريده

هو ان يحيا بأمان ، فلا استغلال ولا استعباد ولا ظلم ولا طغيان .. ولكن العيب كل العيب والنقص كان في المرايا وفي الايادي التي سلمت اليها تلك المرايا .. فمسخت الصور ، وشوه الواقع ..

وانا اعتقد ان الالحاح والاستماتة في اظهار مثل تلك الصور البشعة عن شعب العراق كان متقصدا الى أبعد حدود القصد ، فمن البديهي ، ان الفنان الحق ، والاديب القريب من الكمال ، والمثقف الحصيف ، هم المرايا التي تنعكس على صفحاتها النقية آمال الامة التي ينتسبون اليها ، ولا يمكن بحال من الاحوال ان تعكس صورا مشوهة أو رسوما مزيفة الا اذا كان الخلل يكمن في المرأة نفسها .. ولكن الذى حدث مع الاسف، بعد ثورة تموز الخالدة ، ان من تصدى لهذا الشعب الصابر وراح يجهد في رسم صورة له لم يكن من ذوي الضمائر الحية والقلوب النقية والنفوس العلية ، بل كان اكثرهم من ذوى الوجدان المتعفن المتاكل ، والنفوس المريضة الميتة ، اذ سرعان ما ارتدوا جلود القرود وتلقفوا المرايا بايد مرتعشة ونفوس تصطك من الخوف ، وراحوا ينفثون سموم الرعب يقذفون بها في اوجه الناس على نحو هستيري ، وقد ظنوا انهم بفعلهم داك يلقون الحجب السميكة على سخائم نفوسهم ، وحقارة ماضيهم .. فظهرت صور مشوهة ، وحقائق معكوسة ، ليس فيها ما يقرب من الحقيقة او يشابهها .. وقد كان من المتوقع ان يكون هذا التشويه الكبير لواقع مجتمعنا على ذلك النحو الذى شاهدناه .. اذ كيف تظهر صورة صحيحة والمرأة في يد من ظل يمثل دور القرد اكثر من ثلاثين عاما ، ويجد لذة كبرى في التمرغ تحت أقدام البغايا من الساقطين خلقيا وفكريا والساقطات جنسياً واجتماعيا .. او تكون المرآة في يد من كان يستخدم علمه وادبه في الدفاع عن الطغاة والمستبدين ويقدم البراهين الزائفة في عدالة النظام القائم آنذاك .. وآخر .. وآخر ، ثم وبجرأة لا يتقنها الا من كان على شاكلتهم عادوا مدافعين عن حقوق هذا الشعب وحراسا له ، بل ممثلين عنه ..

ان المرايا سلمت مع الاسف الشديد الى أيد ملوثة مرتعشة خائفة ،

فعبثت بها وبالصور التي حاولت ان تعكسها ..

ان المثقف الحق ، هو المهندس المثالى الذي يرسم الطريق الصحيح لشعبه وامته ويرشدها الى الحق والحرية والنور ..

والاديب الصادق ، هو الضمير الحي للامة التي ينتسب اليها ، وعليه تقع مسؤولية كبرى في قيادة الشعب الى السلام وبناء مجتمع سليم ترفرف عليه الطمأنينة والعدل ..

والفناس المخلص ، هو المرآة الصافية للمجتمع الذى يعيش فيه ، ينعكس على صفحتها النقية تطلع امته الى الجمال والخير والفضيلة ..

انها مسؤوليات كبرى يضطلع بها من هو اهل لها .. ومن يرى السعادة كل السعادة في هناء امته ورفعتها وعزتها وكرامتها ، ومحاربة الظلم اينما كان والدفاع عن المظلومين والبائسين والكادحين حينما وجدوا وان ادى ذلك الى عذابه ، بل وحياته يقدمها قربانا لشعبه السائر نحو النور

انه امتحان رهيب ، مر به اولئك الذين كانوا يدعون الادب والثقافة وانها لفاجعة عظمى ان ينحطوا الى ذلك الدرك المقيت .

الأنسانية في كل شيء

حين يقال لنا ان فلانا ذو نزعة انسانية • او ان الكتاب الفلاني يضم بين دفتيه انسانية عميقة يعني ذلك ان المؤلف ذو قلب كبير يسع كل شيء ويفيض بالرحمة والعطف على كل شيء ، فذو القلب الكبير يشعر ان كل كائن حي شريك له في الحياة ، فالانسان اخوه الحميم ، يشاركه في افراحه واتراحه ، وهو يسعداذارأى فردا أو جماعة أو شعبا ينعمون بالاطمئنان والهدوء وكأنه هو المنعم بهما ، ويحزن اذا رآهم في غمرة الالم وكأنه هو المصاب ، فشقاؤه وسعادته متصلان بسعادة وشقاء الآخرين حتى يخال اليه انه اوكل لاسعاد البشرية وتخليصها من الامها واوجاعها وشروها ، فالكائن الحي عنده ذو وجود مستقل يجب ان يحيا حياته التي من اجلها خلق •• فألحيوانات على اختلاف انواعها كائنات حية لها ان تحيا حياتها الطبيعية ، وكل ما يصيبها من مكروه أو اذى فانما هو من وحي الطبع السيء ، أو الذي لم يهذب بعد •

وليس كل انسان بمستطيع ان يكون من ذوي القلوب الكبيرة التي تسع كل شيء وتفيض بالرحمة والعطف على كل كائن حي وتتحسس تحسسا عميقا بالآلام البشرية ، أو بالمجموعة الانسانية الضخمة على اعتبار انها وحدة لا تتجزأ ، فالانسانية اعلى مراتب الانسان الكامل ، لا يبلغها الا العبقري الفذ ، وقد نجد عباقرة في كل شيء الا بما يتصل بهذه النزعة ، كنيتشه مثلا فهو رغم عبقريته العظيمة ، الا ان نزعته الانسانية تكاد تكون ضعيفة ، لانه لا يؤمن الا بالانسان القوي ، اما

الضعفاء فيجب ان يقضي عليهم ليتسع الوجود للاصلح فقط ، وكأن اولئك الذين وصمهم بالضعف كائنات غير جديرة بالحياة يجب ان يقضى عليهم كما يقضي على أية حشرة وكأن مسؤولية الضعف والقوة تقع على الانسان وحده ، في حين ان قلب غيره يتسع حتى للحشرات كأبي العلاء مثلا الذي فضل تسريح برغوثة على اعطاء درهم للفقير ، لان الفقير قد يجد ما يقيم به اوده ، أما البرغوثة فلا تجد من يهبها الحياة الا من كان على شاكلته ..

واذكر كاتبا ذا نزعة انسانية ادار على لسان اشخاصه حوارا يتصل بهذا المعنى ، فبينما كان العشيق يريد ان يبرر قتله فقيرا لدى عشيقته بقوله : (ولكني لم اقتل سوى حشرة حقيرة) كانت تجيبه : « ان هذه الحشرة التى تزعم انها حقيرة ، كائن حي ذات وجود مستقل ، فقتلك اياها يعني انك ازهقت حياة بالباطل . »

واذا ذكر لنا انسان ذو نزعة انسانية عميقة ، كتولستوى أو غاندي مثلا فاننا لا نستطيع ان نتخيله على غير صورة القديس او النبي الذي يتفجر قلبه حبا يعمر الكون اجمع .

ذلك ان قسيسا قال : لو انني نطقت بكل لغات البشر بل حتى بلغات الملائكة وكان قولي خاليا من الحب لكنت كطبل يدوي او نحاس يطن ولو انني تملكت اسرار الغيب ونفذت الى كل معنى خفي ، واحطت علما بكل شيء بل لو ان قلبي عمر بايمان ينقل الجبال وكنت بغير حب لما كنت شيئا ولو انني وهبت كل ما املك طعاما للفقراء . ولو انني أسلمت جسمي وقودا للنار وكنت بغير حب لما افدت شيئا ... الحب صبر ودعة واحسان الحب لا يعرف الحقد ، ولا تسمع له صخبا ولا عجلة ، ليس للكبرياء أن تغل من سلطانه ، وهو تواضع لا يعرف التعالي ولا يسعى الى نفع ولا يحس بمرارة وهو حين يذكر حبه لكل شيء بهذه الصورة فانما يعبر عنه باوسع معانيه ، ويصور في الوقت ذاته النزعة الانسانية التي يجب ان

تترعرع في كيان الانسان أن يكون ذا حب صادق عميق لكل شيء دون ضجة أو ضوضاء أو تفاخر لانه صبر ودعة واحسان ، ولانه لا يعرف الحقد ابدا ولا تسمع له صخبا أو عجلة ، وهو تواضع لا يعرف التعالى ولا يسعى الى نفع ولا يحس بمرارة ، لانه لا ينتظر جزاء حتى يشعر بالخيبة وهذا هو الحب الذي أشرنا اليه بقولنا انه أعلى مراتب الانسان الكامل لان الانسان لا يكون ذا نزعة انسانية عميقة ما لم يعمر قلبه مثل هذا الحب الكبير ويلازم كل افعاله وحركاته وأقواله .

والنزعة الانسانية توجد في الرجل العامي ذي القلب الفطري كما توجد عند المثقف بل اننا قد نجدها في الانسان الذي يحيا حياة فطرية أصدق منها في قلب الذي تزود بعدة ثقافات وقد نرى الفطرى ذا القلب السليم يشعر بالروح الجماعية والمشاركة الوجدانية أكثر من الرجل المثقف ، اقول : قد نرى لكيلا يتخذ من هذا القول قياسا .

ولقد أشار « ابراهيم النظام » الى فعل العلم في الانسان بقوله : « ان الكتب لا تحي الموتى . ولا تحول الاحمق عاقلا ولا البليد ذكيا ، ولكن الطبيعة ، اذا كان فيها ادنى قبول ، فالكتب تشحذ وتفتق وترهف .. » فالكتب اذن لا تستطيع أن تفعل لصاحبها أي شيء اذا لم يكن للطبيعة عنده ادنى قبول . ولهذا نجد ان بعض الشعراء والادباء على السواء ، بالرغم من مواهبهم الكبيرة في الكتابة أو النظم ، لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عادة الاستجداء مثلا . أو من بعض العادات المرذولة ..

أخلص من هذا القول الموجز في النزعة الانسانية بمعناه الواسع لاقول اننا بدأنا نرى في الايام الاخيرة ان هذه النزعة بدأت تتخذ معنى ضيقا جدا لا تتعداه وهذا المعنى لا يتعدى وصفنا لحالة البؤس فقط ، فالكاتب الانساني الان هو من وصف بائسا وصفا يثير فينا الشفقة والعطف . وعلى هذا الاساس اصبح كل من يذكر البؤس عرضا أو يصور بالالفاظ حالة مؤثرة لبائس مسكين ، كاتبا انسانيا كبيرا يجب ان يقام له

تمثال ، في حين ان أكثر هؤلاء الذين يذكرون البؤس في كتاباتهم لم يعانوه أو يعيشوه او يتحسسوا به • انما يكتبون ما يكتبون وهم في شرفات قصورهم الفخمة يطلون منها على حدائقهم الفينانة الزاهيه . ليصوروا بعد ذلك آلام البشرية الكادحة بالفاظ لا يستشف منها غير الدجل الكبير •• وهم بعد ذلك يأنفون من بائس اذا رأوه ويتقززون منه ، وينفضون اذيالهم اذا مر بجانبهم أو يشمخون بانوفهم وينهرونه بقحة بالغة اذا حاول ان يستدر عطفهم الميت عليه •• ومع ذلك فهم يكتبون عنه من مراتعهم الخضراء لكي يمسكوا بالشهرة الزائفة من احد جوانبها ، ولكي يقال عنهم انهم كتبوا عن البؤس واثاروا في الناس الشعور بالشفقة والرحمة •• مع ان اثارة الشفقة والرحمة على الناس لا يبعث فينا غير عطف كاذب « لان العطف الحقيقي لا يقتضي المشاركة في الحزن والسرور فحسب بل يقتضي المؤازرة بالجهود ، فاذا اقتصرنا على الشعور بما غشى غيرنا من النوائب ، وما نابهم من حوادث الدهر ، كان عطفنا عطفا كاذبا فالعطف الحقيقي يجعلني شريكك بالفعل لادفع عنك ما دهمك وانصرك على ما ألم بك •• » (علم النفس جميل صليباص ٢٦٨) •

وانا اريد ان اسأل اولئك الذين ما زالوا يتشدقون بالانسانية وكأنها من بعض خصالهم ، عن الجهود الواقعية الملموسة التى قدموها الى اولئك الذين يكتبون عنهم ؟•• ان من يشعر بالانسانية شعورا صادقا لا يتشدق بها أبدا ولا يعلنها للتباهي والتفاخر أبدا ، والا فهي انانية مقيتة مشوبة بحب للظهور كبير •

وكما اتخذ هذا المعنى الكبير هذا الطابع الضيق ، اتخذت « الوظيفة الاجتماعية » للكاتب طابعا ضيقا أيضا ، وهو الطابع السياسي فقط فكل ما يكتب الان لا يسمى أدبا أو فنا ما لم تكن الفكرة الاساسية متصلة بالسياسة • اما نواحي الحياة الاخرى ، وهي بالتأكيد اعمق جذورا واولى بالدراسة من غيرها لاتصالها بالحياة العامة اتصالا لا يمكن أن ينفصم •

ولقيام المجتمع عليها ، فلا يعتد بها ازاء فكرتهم السياسية • مع ان « الوظيفة الاجتماعية » هي من بعض واجبات الكاتب وليست كلها ولكن النظرة الجامدة الضيقة السطحية هي كل حصاد اولئك الافاضل من هذه الحياة •

القمح والعوسج

يكاد يكون من المتفق عليه ان الادب العربي الحديث يفتقر الى ناقد يكون مهمته الاساسية دراسة الآثار الادبية ونقدها وفقا للمفهوم الحديث للنقد الموضوعي • وان اغلب ما نقرأه من « نقد » لبعض الآثار الادبية في المجلات والصحف مصدره الاساسي العاطفة وعلاقة الناقد بصاحب الاثر • لذا فانه أما ان يكون مدحا يشيد بالاثر وبصاحبه اشادة مطلقة أو قدحا يهوي بهما الى الحضيض ، او اننا نجد من يحاول أن يفرض على الاثر الذي يكتب عنه وجهة نظره الخاصة والمذهب الذي يدين به فينطلق من هذه الزاوية في تبيان المفاهيم التي يؤمن بها ومبلغ مجافاة الكتاب لتلك المفاهيم أو مطابقته لها ، اما الناقد الذي يتخذ من النقد مهنة اساسية ، فيدرس الكتاب دراسة جدية ويحلله من جميع زواياه كأن يبين قابلية صاحب الاثر الفنية والادبية وعلاقة كتابه الاخير باعماله السابقة ومدى التطور الذي بلغه وأثر المجتمع او البيئة فيما يكتب والخط النفسي للكاتب ومفهومه للحياة فاني استطيع ان أقول ان مثل هذا « الناقد » المثقف المتخصص لم يوجد بعد في ادبنا الحديث ، واذا كان الامر كذلك ، أي انعدام الناقد المثقف في الاجزاء العربية الاخرى التي يجد فيها الفنان والاديب متنفسا فينشيء ويقول ولو بنسب متفاوتة من الحرية الفكرية التى هي عماد الاديب والفنان ، فان انعدامه في العراق أمر بديهي • فالناقد يوجد بوجود الآثار الادبية والفنية ، فهي سابقة عليه ، فاذا انعدمت

هـذه الآثار انعـدم وجود الناقد .. وقصـة الجمود الادبى في العراق . ووضعية الاديب والفنـان الخاصة والظروف الشـاذة التي يعيشها حديث طويل مليء بالنشيج والحسرات .

لذلك فاننا لا ندهش فقـط حين نفاجأ بميلاد ناقد يحاول ان يؤكد وجوده بالرغم من العقم المؤيس وانما نفتح أشداقنا استغرابا لهذه القوة التي يمتلكها المولود الجديد فتجعله قادرا على الوقوف امام التيار المضاد .

وقد كاد عراقنا يشهد في الفترة الاخيرة ميلاد ناقدين سماتهما البارزة الانصراف الى النقد هما الاستاذان عامر رشيد السامرائي وعبدالجبار داود البصري ، ومع كل التحفظات التي يمكن ان تثار حولهما ، ومدى التزامهما بواجبات الناقد الاساسية ، فانهما ، بعد كل قول ، يحاولان ان يثيرا شيئا من الحياة في واقعنا الراكد .. واذا كان السامرائي يسرف بعض الشيء بابراز مساوىء الاثر الذي يتناوله بالنقد الى حد يخرجه عن أبسط قواعد النقد المتعارف عليها كما فعل مع الاستاذين حافظ جميل وهلال ناجي ، فان البصري يحاول أن يوفق في ذلك ، أي انه يحاول ان ينصف الاثر فينثني على صاحبه في المواطن الذي يراه يستحق الثناء ، ويعيبه في المواقف التي يراها باهتـة أو ضعيفة .. ولكن ، هل استطاع البصري أن يوفي هـذه الناحية حقها ولو بنسب متفاوتة ، وهل تتوفر فيه عناصر الناقد المثقف التي ذكرنا جزءا منها في حديثنا هذا ؟!.

وقبل الاجابة على مثل هذه الاسئلة . نود ان نبين ان البصري قارىء جيد ، أي انه يجهد نفسه في قراءة الكتب التي تبحث في شؤون النقد ومن ثم يحاول الاستفادة من آرائها في الآثار التى يقرأها لبعض الكتاب ، فهو يحاول أن يطبق بعض المفاهيم النقدية الحديثة على الآثار الشعرية خاصة ، ولكنه غالبا ما يفشل في مهمته هـذه فيقع في تناقضات واضحة .. او انه يحاول ان يستخلص من الاثر الذي ينقده نتائج وآراء لا يتضمنها النص ثم يتخـذ منها حقائق ثابتـة يبني عليها آراءه .. وكتابه « القمح والعوسج »

مليء بمثل هذه التناقضات والاستنتاجات الخاطئة والاحكام المبتسرة ..
فهو ما يكاد يقول الرأي حتى ينقضه في نفس الصحيفة .. ولكي نبرهن على ذلك فليس لنا الا ان نورد امثلة تؤيد ما نذهب اليه .. ففي حديثه عن مجموعة علي الحلي الشعرية « ثورة البعث » يورد ابياتا كثيرة من قصيده الشهيد فرحات حشاد ثم يقول عنها « ان كل لفظة من هذه القصيدة منتقاة جميلة عذبة موسيقية الجرس ، عربية فصيحة ليست بالمستنكرة ولا مبتذلة وليست أجنبية دخيلة ولا عتيقة .. لغة شعرية صافية « ص ٨٧ » وهـذا نص لا يحتمل التأويل ، فهو يخبرنا بصورة قاطعة ان كل لفظة في هـذه القصيدة بالذات عذبة وجميلة ومنتقاة ، أي انها خالية من الالفاظ النابية والحوشية والمستقبحة وليس بامكاننا أن نستبدل أية لفظة منها باخرى . ولكنه يعود فيقرر في (ص ٩٠) ان الشاعر استعمل في القصيدة المذكورة ألفاظا بعضها ناب وبعضها قلق وبعضها غير مستقر كقوله « الظلام المتاح » و « المصرع الملتاح » و « العرس المفراح » و « غريم الصباح » فأي القولين أصح ، واين يضحى تحديده « ان كل لفظة من هذه القصيدة منتقاة » اذا كان هو نفسـه يجد فيها ألفاظا لا معنى لهـا انما اوردها الشاعر لضرورة القافية ! . ثم يمضي الناقد في التناقض فيسرف فيه حتى في حدود الجملة الواحدة ، ومن البدهي ان مثل هذا التخبط يضطرنا الى القول أن البصري لا يتأكد من الشيء الذي يقوله قبل ان يدونه ليصبح حكما يتعكز عليه ، فهو يقول « وقد ساعدت اللفظة المختارة على صقل موسيقي شعر الحلي فجاءت صافية رقراقة مشتهاة ولكن موسيقاه ، ضيعت عليه سمة الوضوح » (ص ٨٨) .. ومفهوم الشطر الاول من هذا الكلام ان الموسيقى الشعرية التي تتخلل أبيات الشاعر تتسـم بالصفاء فهي رقراقة ومشتهاة . ومـن البدهي ان من أولى سمات الصفاء هو الوضوح ، أي ان الصور والاحاسيس التي تثيرها الموسيقى الرقراقة الصافية تكون واضحة جلية لا غموض فيها ولا ابهام بعكس الموسيقى المضطربة المشوشة ، فان الصور التي تثيرها تكون

مشوشة غائمة مثلها تماما ، ولكن البصري يخالف ذلك ويقول ان الموسيقى الصافية الرقراقة المشتهاة تثير أحاسيس مضطربة وصورا غائمة ، واذا توخينا الدقة فانه يقول ان موسيقى الحلي لا تحمل في ثناياها غير الدندنة والطنين الاجوف الذي لا معنى له ، حتى انك لو حاولت أن تفهم ما يريد أن يقوله الشاعر أو تحس به على الاقل فسوف تجد « ان الفكرة والصورة كلتيهما تفران من امام الباصرة والبصيرة » (ص ٨٩) اي ان الحلي يجعجع لا اكثر فأين اذن موسيقاه الصافية الرقراقة المشتهاة ؟!..

ثم ما يكاد ينتهي من ذلك حتى يورد حكما آخر فيقول « نستطيع أن نقول ان الحلي ينشد ولكنك تجازف حين تقول انه يصور وانه يفكر أو يتحدث » (ص ٩٠) وهذا مفهوم جديد للشعر لم يسبقه اليه أحد ، فهو يطلب من الشاعر أن يفكر وان يتحدث ، أي انه يطلب منه ان يقوم بمراجعة عقلية لما يريد أن يقوله ، في حين ان كل من كتب عن الشعر يؤكد ان مهمة الشاعر الاساسية هي الغناء العفوي ، وانه اذا حاول ان يقحم ثقافته العقلية في ما ينظم أفسد عفوية نغمه وبطل أن يكون شاعرا ..

ويبدو أن البصري مولع بعمليات الاحصاء ، اذ انه لا يكتفي باجراء عمليات من هذا النوع للكتب التى ينقدها ، وانما يضع جداول تخطيطية تجعل القارىء يتوه فلا يعود يدري اهو يقرأ نقدا أدبيا لعمل أدبي ام موضوعا في الاحصاء !. فهو يحصي على الحلي مثلا الالوان التي استعملها في قصائده ، أما لماذا ، وما هو مدلول ذلك بالنسبة لنفسية الشاعر فان ذلك ليس من مهمة البصري التي هي الاحصاء فقط . لذلك فهو يقول « وفيما يلي احصائية بذلك » (ص ٩١) ويقف عند هذا الحد لا يتعداه . والجدول الذي وضعه الدكتور يوسف عز الدين خير شاهد .

ثم . وبعد ان يفعل كل هذا بالحلي يردد بانفعال ظاهر ان قصدة « الابرياء » من انجح قصائد الشاعر لان الحلي عبر فيها عن النضال والنورة والاضطهاد بصورة فنية جديرة بالاحترام .. ولانها من القصائد التي تغرق

موسيقاها معانيها .. فهي لذلك تعتبر «وثائقية» في الشعر العربي المعاصر .. (ص ٩٢) ولكن ، هل يدع البصري مثل هذه المصالحة الختامية تمضي بسلام .. كلا .. فهو ما يكاد ينتهي من كلامه هـذا حتى يتهـم الحلي بالسرقة والسطو . ويؤكد ان القاريء لا يستطيع ان يطرد من مخيلته وهو يقرأ القصيدة المذكورة ذكريات «اغنية في شهر آب» لبدر شاكر السياب .

وحتى لو فعل فانـه سيجد ظلالا اخرى تحتضنها هي ظلال قصيدة «الغراب» من شعر ادجار الان بو (ص ٩٢ و ٩٣) .. واذن فان قوة قصيدة «الابرياء» (الوثائقية) مستمدة من قصيدتين الاولى لبـدر السياب والثانية لالان بو ..

قلنـا ان البصري يستنتج من الاثر الذي ينقـده اشياء لا وجود لها ثم يتخذها قاعدة يقيـم عليها مفاهيم ادبية معينة ، ومثل هذه الاستنتاجات كثيرة في الكتاب ، فهـو مثلا يرى ان الفراغات في الشـعر الحديث ذات دلالات خاصة وترمز الى تفاصيل محذوفة لا مبرر لها ، و « تهيء القاريء للانتقال من فقرة الى فقرة وتعطيه مجالا لفهم منطق القصيدة » (ص ٩٥) وليست مجرد فراغات ونقط يوردها الشاعر اعتباطـا . ويرى ان سعدي يوسف أكثر شعراء الشعر الحر فهما لمعنى الفراغات والنقاط » (ص ٩٦) ونحن من حيث المبدأ ليس لنا اعتراض على هذا الرأي . وان كنا نؤمن ان الكثيرين منهم يسرفون في استعمال النقط وعلامات التعجب والاستفهام بشكل اعتباطي ودونما غاية واضحة .

ولكي ندلل على هذه الناحية فليس لنا الا أن نورد مقاطع من قصيدة « الخيط » لسعدي يوسف التي اتخذها البصري نموذجا وتعليقاته عليهـا واستنتاجاته الخاطئة لكثير من ابياتها ..

يقول سعدي :

انني احسست بالموت قريبا
قبل اعوام ....[1]

وما زال كعيني قريبا
انني ألمحه اليوم كما كنت أراه
شبقا كالحلم تدعوني خطـاه
مثلما تدعو حبيبا ....[٢]
نحن كنـا أربعة .
وعلى الشارع آلاف العصافير تطير
من حجر
كانت الارض اناء من رصاص ... وبشر[٣]
ذلك اليوم رأيت الموت يدنو
فكرة فيها عذوبة
وارتعاش
لحظة ألمس في اعماقها كل الحياة
خطوة مملؤة ثم اموت
برصاصة .
ثم يمضي الموت والشارع عني والبيوت والرصاصة

* * *

ان من بعض المآخذ التي يحتج بها رواد الشعر الحديث على الشعر العمودي الموروث في محاولة تبريرهم للتخلص من وحدة القافية وضروراتها هي ان هدف القصيدة الاساسي كان يعتمـد بالدرجة الاولى على ايصـال احاسيس الشاعر أو غاياته عن طريق السمع . أي انه كان يلجأ الى انشاد القصيدة في محفل عام او خاص فقط ، ولا يملك غير هذه الطريقة ، لذلك فان وحدة القافية كانت تعينه على سهولة حفظ القصيدة ومن ثم روايتها ، اما رواد الشعر الحديث فيرون ان الانشاد لم يعد ضروريا ما دام المجتمع قد تحول من قبلي جماعي الى فردي غارق في الفردية . فبعد ان كان الشاعر يعبر عن روح الجماعة او القبيلة التي ينتمي اليها ويتكلـم بلسانها اصبح

يتحدث عن ذاتـه الخاصة ومشاعره الفردية وآلامه المميزة .. لذلك فلم يعد هنـاك ما يوجب التقيـد بوحدة القافيـة ما دمنا نكتفي بقراءة الابيـات الشعرية ونستمتع بمـا فيها من احاسيس واخيلة وصـور وموسيقى .. وقصيدة سعدي الانفة الذكر تلتزم هذا المفهوم للشعر . فهو قد حطم وحدة القافية واستعاض عنها بمشاعر خصة لحدث معين فاطلق عاطفته تنساب عـلى سجيتها دون ان يسجنها بقافية قد تحد من قوتها او تجعلهـا تحيـد عن طريقها للضرورات التي تضطره اليها وحدة القافية ..

فهو يفتتح أبياته بذكرى وقعت له قبل أعوام ، تجربة مريرة قاسـية يتردد صداها في اعماقه كجرح لا يندمل . فكان ان احس بالموت قريبا منه وما زال رغم مرور اعوام على الحادث يحس به قريبا منه كعينيه . حتـى بات يستعذبه ويراه شيقا كما لو كان يدنو من حبيب ، ثم يحدثنا عن الذكرى المؤلمة هذه .

ونفهم انهم كانوا اربعة تجمعهم اشياء كثيرة لا مجال لنسيانها وتنتصب امامه كجرح ينزف .. ونفهم كذلك انهم كانوا في تظاهرة يتطاير فيهـا الحجر كالعصافير حتى خيل اليه ان الدنيا تمطـر حجـرا ، وان الارض تستحيل الى اناء ليس فيه غير الرصاص يستقر في الكائنات البشـرية التى تتهاوى صرعى .. ثم يمضي يتسلسل بذكرياته فيصف احاسيسه تجـاه الموت وكيف انه تجاوزه احد رفاقه ليتركه يعاني العـذاب والالم .. فـد يكون هذا التلخيص لفكرة القصيدة افقدها عمق أحاسيسها ذلك ان المشاعر لا تلخص او تروى وانما تحس فقط .. فاي شيء فعل البصري بالابيـات هذه ..

ونرى قبل ان نناقش استنتاجاته لبعض مقاطعها نورد تلخيصه لهـا كجزء متمم ، يقول البصري : « وخلاصتها ان اربعة اشخاص اشتركوا في مظاهرة وان اثنين من هؤلاء الاربعة كانا متلهفين للاستشهاد من اجـل (الوطن) » (ص ١٠٢) ولست ادري لم تذكرت قصة اعرابي الذي قرأ

سورة يوسف فلما سئل عنها قال « شيخ فقد ولده ثم وجده » .

يقول البصري (في هذه القصيدة خمسة فراغات .. اما الاول والثاني فهما حدان يحددان جملة معترضة « ـ .. ـ » وليس لهما اي معنى آخر) (ص ١٠١) ومعنى ذلك ان النقط الثلاث التي الحقت بالهامش رقم[١] والنقط الثلاث الاخرى في الهامش[٢] هي مجرد نقط وليس لها اية دلالة، فأين نضع قوله الاول من هذه النتيجة ؟.. ولكن لنتجاوز ذلك أيضا الى الفراغ الثالث ، يقول البصري « اما الفراغ الثالث فهو شتائم لم يثبتها الشاعر لانها تسيىء الى الاتجاه العام في القصيدة ، اولانه حائر لا يدري هل هؤلاء الذين يطلقون الرصاص هم المسؤولون بالدرجة الاولى ، فهم جديرون بالشتائم أم أنهم طيبون ينفذون ما يؤمرون به » والبصري فهم « كل هذه المعاني بدليل ان الفاصلة لو وضعت بدل الفراغ لجمعت بين شيئين لا جامع بينهما » (ص ١٠١) والبيت الذي يحمل كل هذه المعاني التي فهمها البصري من النقط الثلاث هو :

كانت الارض اناء من رصاص .. وبشر . اي انك لو وضعت فاصلة بدل الفراغ لجمعت بين شيئين لا جامع بينهما ، بين الرصاص والبشر ؟!.. لذلك فقد راح خياله الخصب يوهم له ان هناك كلمة محذوفة ، وان هذه الكلمة تتضمن معنى من معاني السباب ، وان الشاعر قد حذفها لانه حائر لا يدري هل هؤلاء الذين يطلقون الرصاص هم المسؤولون بالدرجة الاولى فيقول فيهم شتيمته ، ام انهم طيبون ينفذون ما يؤمرون به ؟! ..

قلنا ان البصري يطلق احكاما اعتباطية كيفما اتفق ، فهي أما تكون مبتسرة او سريعة او خاطئة او مستمدة من فهم خاطىء للنقد بصورة عامة والشعر بصورة خاصة . وقراءة سريعة لما كتبه عن الناصري مثلا تقفك على مدى الارتجال الذى يعاني منه البصري . وقبل ان ندلل على ذلك نود أن نذكر ان البصري افتتح حديثه عن الناصري بذكر ولادته ونشأته واصله وقد استغرقت هذه الترجمة عشرة اسطر ، وانتقل بعدها يتحدث عن شعر

الناصري ، وقال عنه فيما قال : ان الناصري لم يعترف بالشعر الحديث وكان يضيق به ، ولاجل ان يؤكد استنتاجه هذا أورد عشرين بيتا يشير الناصري في كل بيت منها برفضه للشعر الحديث ، ومن يدري فلعل لمهنة التعليم الابتدائي التي زاولها البصري زمنا اثرها في ذلك ، فهو ما كاد يفرغ منها حتى اردفها بعشرين اخرى لكي يدلل على ان « الصورة في قصيدة الناصري خليط متراكم متجمع دون نسق من المنطق ودون بنية ناميةمتطورة فبأمكان القارىء ان يقدم مقطعا على مقطع دون أن يختل نظام القصيدة الداخلي ، وبأمكانه ان يحذف اكثر من بيت واحد دون ان تتأثر شخصية القصيدة » (ص ١٤١) وفات البصري ان مثل هذا الرأي يقوله رواد الشعر الحديث عامة عن القصيدة العمودية ويتخذونه حجة أخرى ضده . فهم يقولون : ان من عيوب الشعر العمودي ، افتقار القصيدة للوحدة العضوية ، اي انها تخلو من وحدة عضوية تتابع فيها الابيات بصورة محكمة حتى انك لو حاولت ان تحذف بيتا او مقطعا اختل بناؤها العضوي وتنفرط ابياتها كحبات المسبحة حين ينقطع خيطها ، ولكنه لم يشأ ان يذكر مثل هذه الحقيقة فأورد عشرين بيتا ليقول بعدها ان بامكانك ان تحذف بعضها او تقدم فيها دون ان يختل نظامها الداخلي ...

والبصري حين يتحدث عن الناصري ، او غيره من الذين كتب عنهم، لا يقوم بدراسة وافية للشاعر كأن يبين ما يتمتع به من مقدرة فنية وثقافية او الطريقة التي يتخذها وعمق التجربة التي لديه والمعاني التي يبدعها ومقدار تأثره بالاخرين او تأثر الاخرين به ، او يحلل الاثر فيكشف مواطن القوة والضعف التى يتضمنها النص بالاستناد الى الواقع الثقافي وغير ذلك من الامور التي يعني الناقد والذواقة ، ولكنه اما ان يورد نصا ليتساءل بعده « اين الصدق في هذه الابيات » أو « أي تجربة هذه » أو « فأين الصدق في الاحساس » (ص ١٩٤٨) وكأنما المفروض في القارىء ان يجيب نيابة عنه عن هذه الاسئلة .أو انه يورد ابياتا ليقول بعدها ان الشاعر لم يكن صادقا

في احاسيسه او ان تجاربه كانت مهزوزة (ص ١٤٦) دون ان يكلف نفسه عناء مناقشة الابيات نفسها ، فتخرج بنتيجة لا مفر منها بعد قراءتك الكتاب ، ان ما قرأته لا يعدو عن ملاحظات اولية دونها الكاتب على أوراق مستقلة ليعود الى دراستها مجددا .. فالناصري مثلا كان في أغلب قصائده الذاتية يستعير اجواء الشعراء المبدعين ويستمد منها معانيه ، ولهذا جاء شعره مهزوزا يفتقر الى المعاناة الخاصة ، وان أغلب المعاني والتشبيهات والكنايات التي ترد في شعره هي اما تكرار لمن سبقه من الشعراء قدامى ومحدثين او من قبيل التعابير الجاهزة كما يطلق عليها البعض .

فلو اخذنا مثلا بعضا من الشواهد التي أوردها الناقد ليتساءل بعدها اين الصدق في هذا الشعر او ليشير الى اضطراب التجربة دون ان يكلف نفسه عناء البحث او التدليل على هذا الاضطراب .. كالمقاطع التالية :

جرعة يانديم قد عسعس الليل واغفى مع الطيور الهتاف
وتعرى الشذا على شفة الورد وللورد روضة مئنف
والنسيم الهفهاف قر على الدوح وقد مل سره الطواف
وكأن الهلال قوس لجين والدرار ي من حوله اصداف
ونثار الغيوم في الافق الازرق قطن اطاره الندف

وقد اورد الناقد في ص ١٤٦ باعتبار ان صورها متناقضة او المقطع الاتي :

لا تسلني عن النساء الغواني انا ادرى بسر تلك الزواني
هي انثى وكل حسناء افعى بين انيابها سموم الهوان
يكمن الموت في ملاغمها الحمر كمون الفناء في البركان

وقد اورد الناقد في ص ١٤٨ باعتبار ان الناصري لم يكن مجبا للمرأة، او المقطع التالي :

شفتاك اغنيتان هاجعتان في وتر طروب
او طائران يغردان على ذرى فن رطيب

بل برعمان تبسما هزءا باحلام القلـوب
بل كوثران تفجرا بالخمر من نبع الطيور

وقد اورد الناقد باعتبار ان الناصري اوجد صورة غير واقعيـة (ص ١٤٣) ولكن دعنا نعود الى المقاطع المذكورة ونتأملها بعض الشيء • فالناقد البصري يقول عن ابيات المقطع الاول ان صورها متناقضة وان تجربته فيها مهزوزة دون أن يبين لنا لماذا كانت كذلك •• في حـين أن تناقضـها متأت من كونها نسخ لمعان والفاظ الياس أبي شبكة وابن المعتـز وغيرهمـا ، ومراجعة سريعة لقصيدة « شمشون » لالياس ابي شبكة وخاصـة هذا البيت :

خيـم الليل ، يا دليلة ! في الغـاب
واغفى حتى الشـذا في الزهـور

نجد ان الابيات الثلاثة الاولى مع المقطع المذكور مستمدة من تجربة القصيدة المذكورة فهي عيال عليها ، أما البيت الرابع فهو مسخ لبيت ابـن المعتز المشهور :

وكـأن الهـلال نـون لجـين
رسـمت في صـحيفة زرقـاء

فمن الطبيعي بعد هذا ان يعم الابيات الاضطراب • اما المقطع الثاني الذى أورده الناقد للتدليل على ان الناصري لم يكن نصيرا للمرأة فهو تأكيد لقولنا من ان الناصري اما ان يتقمص تجارب الاخرين او يكرر المعـاني الشائعة ، فهو في البيتين الاولين يشبه الحسان بالافاعي التي يكمن في انيابهـا السم وهو تشبيه كاد ان يستهلك ان لم يكن قد استهلك بعـد لكثـرة ما استعمل ، اما البيت الثالث فتأكيد آخر على محاولة الناصري الاستفادة من كل تعبير جديد ، لذلك فهو مسخ لبيت ابي شبكة :

ملقيـة ففـي ملاغمـك الحمـر
مسـاحيق معـدن مصـهور

من قصيدة شمشون ذاتها • ذلك لان شاعرا آخر لم يستعمل «الملاغم الحمر » قبل ابي شبكة •

أما المقطع الثالث وقد قال عنه الناقد انه ابداعات الشاعر للصور غير الواقعية ، فهو مسخ واضح لقصيدة السياب المشهورة « انشودة المطر » وان القارىء ما يكاد يبدأ قراءة ابيات الناصري تلك حتى تنتصب امامه ابيات السياب التالية :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
او شرفتان راح ينأى عنهما القمر

ومع ذلك • فان البصري لا يجد اية حراجة في ختام حديثه عن الناصري فيضعه بسهولة بالغة الى جانب على محمود طه وابراهيم ناجي والياس ابي شبكة ومحمود حسن اسماعيل (ص ١٥٢) متجاوزا كل الفروق الاساسية والجوهرية التي تفصله عنهم •

وبعد • فليس هذا ما في الكتاب فهناك نماذج كثيرة اهملناها مضطرين خشية الاطالة • ومع ذلك فما اوردناه كاف لاعطاء صورة لطريقة البصري في النقد •

حول الأدب الشعبي

ان العناية بالادب الشعبي وكل ما يتصل بالشعب ما زالت في بدايتها ، اي انها مجرد محاولات لم تتسم بعد بطابع الجدية ، بل ان بعض هذه المحاولات خرجت عن كونها دراسات علمية تتوخى تجسيد الادب الشعبي والعادات الشعبية واضحت أشبه ما تكون بالمراثي التي تنشد في الجنائز • لكون الغاية هي اظهار المفارقات لاثارة الاشمئزاز او الضحك • وليس الدراسة لاجل الفهم والتقويم •

والاستاذ عامر يقر مثل هذه الحقيقة في كتابه المذكور ويعترف ان محاولته في دراسة الادب الشعبي ما زالت تحتاج الى استيعاب اكثر وجهد أكبر •• ومع اعترافي الشديد بالعمل الذي قام به ، فاني اعتقد انه لو تأنى اكثر لخلت دراسته القيمة من الاراء العفوية او المطلقة ••

فهو يقر مثلا ـ ان الادب الشعبي في العراق واسع في مداه ، متباين في اتجاهاته مختلف في ضروبه ، غير ان الضرب السائد والشائع منه والذى يجذب انتباه الناس هو الشعر الشعبي (ص ٧) •• ولو اننا حاولنا ان نبحث عن هذا الادب الواسع المتباين لما وجدنا له مثل هذه السعة • واذا كان المقصود بالادب الشعبي هو هذه الحكايات التي تروى في المجالس فهي محدودة وتكاد مضامينها تكون متشابهة وان اختلفت اساليب رواياتها • ومثل هذا التقرير السريع اوقعه في تناقض واضح • ففي الوقت الذي يضفي فيه الشمولية على الادب الشعبي وعلى الشعر بالذات ، يعود ويقرر

ان الشعر ، الذي هو أبرز جزء في الادب الشعبي ، يعجز عن استيعاب الصور الشعرية والافكار المعبرة ويقتصر على اوصاف ساذجة ظاهرة بالاضافة الى التخلخل الواضح فيه كفقدان وحدة الموضوع وعدم وجود ترابط الافكار المعبر عنها ص٤١ و٤٢ و٤٣ و٤٤) .

واعتقد اننا لو حاولنا جديا ايجاد الاسس التي يرتكز عليها الادب الشعبي او تحديد الاطر التي تنظمه لتوصلنا الى نتيجة حسنة ولتجنبنا بالتالى تعاريف مطلقة لا يحصرها شيء .

ثم يحاول بعد هذا الاستاذ عامر ان يضع تعريفا للادب الشعبي،ذلك لان ـ العناية بالمأثورات الشعبية بشكل عام وبالادب الشعبي بوجه خاص توجب ذلك ، خاصة وان هناك من يظن ان العناية بكل ما تنتجه العامة ـ من فكر أو مادة و من التراث الشعبي الجدير بالتسجيل والدراسة ـ ص ٩ وبعد ان يستعرض بعض ما قيل في الادب الشعبي يعترف ان تقديم تعريف واضح له لا يخلو من صعوبة .. غير ان مثل هذه الصعوبة لا تقف حائلا دونه فيقرر ان الادب الشعبي ، التعبير عن انفعال عاطفي او فكري يتخذ اللهجة العامية اسلوبا له في التعبير . تطغي على معانيه السذاجة التي يتميزبها ابن الشعب المرحوم ـ ص ١٥ و ١٦ .

وقبل ان نناقش هذا الرأي ، ينبغي ان نستعرض قليلا بعض الاوصاف التي نعت بها الادب الشعبي ، ـ ادب الفلاحين والعمال والفئات المغمورة اجتماعيا ـ ولكي يفرق الادب الشعبي والادب بمفهومه العام حاول ان يضع تعريفا له فقال عنه انه ـ التعبير عن تجربة شعورية وذلك التعبير اما يتم باسلوب رفيع يراعي فيه انتقاء الالفاظ وصياغة الكلام بشكل يثير الانفعال والاحاسيس المماثلة (ص ١١) فالادب الشعبي اذن هو التعبير عن انفعال عاطفي او فكري باللهجة العامية ، والادب بمفهومه العام هو التعبير عن تجربة شعورية باسلوب رفيع .. وقياسا على التعريف الثاني يتبغي ان نقول : ليس كل ما يكتب باسلوب لا يراعى فيه انتقاء الالفاظ وصياغة

الكلام داخل في نطاقه .

ولا أريد هنا أن اناقش التعريف الثاني ، فسأعود اليه فيما بعد ، ولكني اقول ان الاستاذ عامر استفاد من التعريفين المذكورين في القول ان هناك نوعين من الادب لدى العامة ، الاول ويسميه بتحفظ الادب العامي يستطيعون ان يعثروا على معان جيدة قد لا تتكشف لغيرهم الا انهم يفشلون في التعبير عنها بالفاظ مختارة وانما يعمدون الى الفاظ غير منتقاة وليس في تركيبها ما يدل على الجهد ـ ص ١٢ و ١٣ ـ . ويقرر ايضا اننا اذا اردنا ان نعتبر كل ما يقال باللهجة العامية ادبا شعبيا ، فان ذلك سيؤدي بنا ـ الى اعتبار الكلام السائد والذى يتبادله الناس في الاسواق وفي المقاهي وفي البيوت أدبا شعبيا (ص ١٢) في حين ان الادب هو التعبير باسلوب رفيع يراعي فيه انتقاء الالفاظ والتراكيب واختيارها (ص ١٢).

ويستشهد للتدليل على صحة ذلك بابيات للشاعر الشعبي عبود الكرخي والشيخ عبدالامير الفتلاوي وعبود غفلة الشمرتي كنماذج للادب العامي .

ثم يحاول بعد ذلك ان يضع فروقا بين الادب العامي والادب الشعبي فيعترف ان الامر لا يخلو من صعوبة لان الفرق دقيق بينهما ولكنه يقرر ـ ان الادب العامي هو الذى يستعمل المعاني الشائعة والافكار السطحية بين الناس . ويكون اسلوبه رديئا ومبتذلا لا يفرقه عن الكلام الذى يتداوله الناس سوى الوزن والقافية ان كان شعرا والسجع ان كان نثرا ـ اما ـ الادب الشعبي فانه لا يخلو من الاقباس الفنية والموهبة الحساسة ويصاغ بلهجة عامية ولكنها غير لهجة الحديث اليومية ، وانما تختار له الالفاظ الموحية أو ذات الجرس الجميل ـ ص ١٤ .

والذى اراه ان الموضوع لا يعالج على هذا النحو ، فكما اننا لا نستطيع ان نعتبر كل كلام يلتزم العمود والقافية شعرا اذا كان خاليا من المقومات الشعرية واهمها التجربة الشعورية والطاقة النفسية

فاننا لا نستطيع كذلك ان نعتبر كل ما يقال باللهجة العامية شعرا شعبيا اذا كان خاليا من المقومات المذكورة • وكما يوجد دخلاء على الشعر الفصيح يوجد دخلاء على الشعر العامي ، وعلينا نحن ان نوجد الفوارق التي تميز الشعر عن القول العادي • فالشعر سواء كان باللهجة العامية او باللغة الفصحى ، اما ان يكون شعرا او لا يكون وتقسيم الشعر الشعبي الى شعر عامي وشعر شعبي لا يخلو من الاجحاف ، لان الكرخي مثلا شاعر مجيد وله قصائد ذات اهداف سياسية واجتماعية صادقة الاحساس والتجربة وديوانه المطبوع ملىء بقصائد صادرة عن طبع سمح ولا يمكن بحال ان نتجاهلها لان في بعضها تعابير غير متقاة او ان تراكيبها ضعيفة • وحتى النماذج التي استشهد بها الاستاذ عامر هي ليست كما يقول كلاما عاديا يتكلمه عوام الناس في الاسواق وفي المقاهي • والا لكان الشعب كله دون استثناء شعراء شعبيين •

وكنت اود لو ان الاستاذ عامر درس الكرخي كشاعر شعبي لعب دورا مهما في حياة الشعب الاجتماعية في فترة من الفترات • وحيث ان منهجه في البحث لم يكن دراسة فردية لشاعر معين او لشعراء محدودين ، وانما دراسة الشعر الشعبي بوجه عام ، فقد كنت اود لو انه بين هذه الحقيقة بصورة تفصيلية خاصة وان البحث يتسع لذلك ، ومن هذه الدراسة نقف على اشياء كثيرة ما زلنا نجهلها •• واذا كان الشعر مرآة تعكس واقع المجتمع من خلال الفرد ، فقد كان بامكاننا ان نقف على حقائق كثيرة لواقع مجتمعنا من خلال الشعر الشعبي •

ثم نعود الى التفسير الذى وضعه الاستاذ عامر للادب بمفهومه العام لنرى مدى انطباعه على الواقع ، فهو يرى – ان التقسيمات المجتمعية تخلق فروقا بينة في طرق التفكير والاستجابة النفسية ثم في طريق التعبير واستعمال الالفاظ ، فالمثقفون مثلا لهم طرق تفكيرهم الخاصة واستجابتهم أو انفعالهم بالمؤثرات تختلف عما هي عند غير المثقفين ، وطرق تعبيرهم

تمتاز بالصقل والتهذيب ، وهم يستعملون اللغة الفصحى دائما • والمترفون لهم طرق تعبير خاصة تأتلف مع حياتهم أما غير المثقفين والمعدمين فهم يمرون بتجارب شعورية ايضا وينفعل بعضهم انفعالا شديدا لا يجد مناصا من التعبير عنه •• ثم ان وسيلة التعبير ـ اللغة ـ تختلف ايضا ، فالطبقات ـ الشعبية ـ او العامية ـ المحرومة من الثقافة تلجأ الى ايجاد او اقتباس الفاظ بعيدة عن الفصحى تطلقها على المسميات التي تعيش في افقها والتي يندر وجودها في افق المترفين او المثقفين (ص ١١ و ١٢) •

فهو هنا يقسم المجتمع الى اربعة اقسام هي :

١ ـ المثقفون ٢ ـ المترفون ٣ ـ المعدمون ٤ ـ غير المثقفين •

وكل فئة من هذه الفئات لها اسلوبها الخاص في الحياة وطريقتها في التعبير ثم يتساءل بعد ذلك ويقول : هل يدخل ضمن الادب الشعبي ما ينتجه المثقفون باللهجة العامية ؟ (ص١١) وينفي ذلك ويستشهد ببعض المثقفين الذين انتجوا ادبا باللهجة العامية لان ـ ما ينتجه المثقفون يفتقر الى السذاجة والعفوية ـ (ص ١٥) •

ويفهم من التقسيم المذكور ان المثقف سواء كان مترفا او غير مترف حتى وان كان ينتسب الى الطبقة الكادحة فان علينا ان نبعده عن الميدان الشعبي لان احاسيسه اضحت مترفة ! واراني مضطرا ان لا التزم بهذا التعريف ، لانني لا استطيع ان اقيس ما يصدر عنهما بمقياس واحد ، وتوضيحا لذلك اقول ، اذا كتب احد المترفين قصة او رواية او شعرا يتحدث به عن دناءة الطبقات الشعبية وضحالة تفكيرها وفق مفهومه الارستقراطي لها فهل يمكننا أن نسمي ذلك النوع من الكتابة أدبا لان الفاظه مختارة واسلوبه متقن ؟ ثم نضعه جنبا الى جنب مع الشيء الذى يكتبه المثقف المعدم والذى يصف به الانسحاق الكلى الذى يقاسيه امثاله المعدمون ؟ فاذا كان الجواب بالنفي فان التعريف السابق للادب بمفهومه العام يثير اكثر من تساؤل !

ويفرض على التقسيم المذكور ان اتساءل ثانية واقول : اذا ساعدت الظروف شخصا معدما كان يقول الشعر الشعبي ، ان يتعلم وينال شيئا من الثقافة ، فهل نحرم عليه قول الشعر باللهجة العامية لانه تعلم الفصحى ؟ .. وهل انه اذا صاغ مشاعر المعدمين والمقهورين حياتيا واجتماعيا وصور أحاسيسهم وأجاد التصوير فاننا لا ندخل ما يقوله ضمن الادب الشعبي لانه مثقف ، ولان المثقف يكون دائما مترف الاحساس ؟ . واين هو الترف في الازجال التي قالها عزيز علي او في اشعار الكرخي؟ . الذى اراه ان علينا ان نفرق بين الذى يريد ان يتجاوز الفصحى لهدمها ، وبين الذى يستمد مادته من صميم واقعنا الشعبي . ولا استطيع كذلك ان اوجه نظرة واحدة الى المثقف سواء كان معدما او غير معدم . وليس من الضروري ان يكون الشخص مترف الاحساس لمجرد كونه مثقفا ولا يحق له ان يتحدث بلسان البيئة التي ينتمي اليها . ولا استطيع كذلك ان استبعد ازجال عزيز علي ولا ما كان يقوله الكرخي من الميدان بحجة ان المثقف يتمتع باحاسيس مترفة لان الاحساس بالترف لا يأتي من الجوع ولانها لو كانت كذلك لما حضت بمثل ذلك الانتشار الكبير لدى كافة افراد الشعب على اختلاف طبقاتهم .

والذى اراه ان السؤال يطرح على النحو التالى :

هل استطاع الشاعر فلان او الزجال فلان ان يتحسس آلام الجماهير المقهورة اجتماعيا ويصوغها على حقيقتها ، وهل ان الجماهير تجد في هذه الازجال والاشعار صدى لاحاسيسها الدفينة التي لم تحسن التعبير عنها ؟ . ان الاخ عامر اعترف ان الكرخي استطاع ان يغوص الى أعماق العامة ويبلور آمالها وآراءها في الحياة ، وان العامة كانت تطرب لما كان يقوله الكرخي – ص٨٨ – وكذا الامر مع ازجال عزيز علي ، فقد كانت تتخذ مادة للانشاد في المجالس العامة والخاصة لانها تعبر عن حقيقة مشاعرهم . فعزيز علي اذن لم يكن يتمتع باحاسيس مترفة ، وانما كان

يحس بالالم الحقيقي الذى يسود كافة افراد الشعب فيعبر عنه ويجيد التعبير ، ولم يكن الكرخي كذلك يصوغ احاديث فارغة وانما كان يبلور آراء العامة في التناقضات التي يعيشونها ويجسدها • فهما اذن كانا يترجمان مشاعر الناس باللهجة العامية ، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم يجدون ذواتهم في تلك الازجال والاشعار فيتبنوها •

ان صعوبة الموضوع تتأتى من كون الادب الشعبي ما زال بكرا لم يطرق بعد ، او انه لم يدرس دراسة جدية ، وان العناية بالتراث الشعبي يعد في حد ذاته ، تحولا كبيرا بالنسبة للتفكير العام ••

واذا اخذنا هذه الحقيقة بنظر الاعتبار فان البحث الذى قدمه الاستاذ عامر يعد اول دراسة جدية للادب الشعبي في العراق • فلقد استطاع رغم هذه المآخذ ، وهي قليلة بالنسبة للجهد المبذول ، ان يحلل الشعر الشعبي تحليلا موفقا وان يبين اهدافه واغراضه والبيئة التي يستمد منها مادته ، ويحدد المجالات التي ينمو او يضمحل فيها ، وان يشرح معانيه ويفسر الغامض منه ، وذلك لعمري ليس بالشيء اليسير ، وعلينا أن نحترم المحاولة ونعتز بها اعتزازا بوليد يأتي بعد عقم كبير •

الشوق واللقاء

منذ مدة وانا اود ان اتحدث عن الاستاذ فاضل السباعي بشيء ، كأن اتناول احدى قصصه الكثار بالتعليق واضمنها ما اكنه له من اعجاب وتقدير ولكني كنت اشغل باشياء كثيرة هي بعيدة كل البعد عن الكتابة ، والواقع ان رغبتي هذه لم تكن مقتصرة على الاستاذ فاضل السباعي وحسب ، فلقد كنت اود ان اتناول غيره من النشطين المتحمسين ، أولئك الذين منحوا ذاتهم كلها للفن الذى يزاولونه ، واخلصوا له اخلاصا يدعو الى الانتباه .. ولقد كنت أشعر ان التحدث عنهم ، وتناول ما يكتبونه بالتعليق . أمر يفرضه على الواجب الادبي ، وشيء ينبغي ان اقوم به كفرد يدعي ان له محاولات في الفن القصصي ..

وحين جاءتني مجموعته الاخيرة ، كهدية اعتز بها ، وجدت انها بما تحتوى من مادة دسمة تتيح لي فرصة طيبة لكي افضي بما يعتلج في ذاتي من كلام .

ولقد استطعت ان ادون بعض الملاحظات ، ولا ازعم انها ذات قيمة . وانها بنيت على دراسة مركزة ، انما هي خواطر اثارتها في القصص وانا اقرؤها ، ولم أشأ ان اطويها كذلك ، فلقد وجدت وانا افرغ منها ان الواجب يدعوني الى نشرها ، لا لانها ذات قيمة كما قلت .

والمجموعة بعد تضم عشر قصص ومسرحيتين ، وليس عجبا ان تخلو القصص هذه من نوازع القلب ، فالاستاذ فاضل يدرك ان للفنان

دورا في هذه الفترة التاريخية ، وان الواجب يحتم عليه القيام بهذا الدور كأي مواطن يدرك ان الاحاسيس التي تثيرها الحياة الحاضرة ، والوضع الحاضر ، لهي اقوى ألف مرة من تلك الاحاسيس التي تنبعث من القلب، طلبا لحبيب غادر ، او تحرقا لنهد نافر .. والاستاذ فاضل السباعي ، احد الذين يناضلون لبناء غد افضل وحياة ارقى .. وان بعض اقاصيصه لتدلنا بوضوح على النقطة التي يجب ان نبدأ منها .. ففي (صحائف جديدة) و (رجل من خشب) و (المجد للسلاح) و (الجسر) و (الشوق واللقاء) نجد بوضوح ما ينبغي ان يفعله العربي لكي يحقق وجودامته فتبعث من جديد . ومع ذلك فان هذه القصص ما يستوجب الملاحظة من ناحيتها الفنية ، ففي مسرحية (الجسر) مثلا ، نجد انها بالرغم من سمو الفكرة ، ونبالة المقصد ، لا تثير في القارىء تلك الهزة التي ينتظرها ، ذلك لان النهاية تضحى عنده معلومه واضحة منذ قراءته السطر الاول ، وهذا من شأنه ان يخمد الرغبة في القراءة ، وواضح ان كل شيء، يضم مجهولا ، يحمل معه بذور اللامبالاة .

وقصة (المجد للسلاح) تحكي صورة مواطن يضن في بادىء الامر بماله على من يجمع التبرع لتحويله الى سلاح يذود عنه واولاده شر الطغاة . فيشق عليه ان تمتد يده الى المال الذى ادخره لكي يتمكن من شراء دار تكون مأوى له ولاطفاله الخمسة الصغار .. ويفضل عليها السلاح الذى يراد شراءه لحمايته . وحين يذكره الفتى - ياسين - بالواجب الذى يحتمه عليه الوطن في هذه المرحلة التاريخية يجيب (ماذا يملك ابو الجود العطار ؟ بيته بالكراء ومأواه بالشراء ! الا يكفي انني اكدح طول نهاري لتوفير اللقمة لابنائي الخمسة الصغار ؟ . الا تعتبر كدي هذا واجبا اؤديه تجاه الوطن) . فهو يرى اذن حسب اعتقاده انه هو ايضا يقوم بواجبه خير قيام فتوفير الرزق لابنائه ، وجعلهم يحيون حياة سعيدة ، هو غاية ما يتمنى اما ان ابناءه هؤلاء يتهدهم بغاة اشرار

ويتربص لداره التي يزمع شراءها لص قذر • فهذا ما لا يفكر به السيد أبو الجود • فهو يحيا اذن حياة سلبية ذاتية ليس لها صلة بالواقع الذي يعيشه • وحين وجد ابو الجود ان الكماشة تطبق عليه وان رجال التبرع يقتربون من دكانه ، اشتد به الذعر فولى هاربا وصرخات الفتى ـ ياسين ـ تلاحقه كالسهام المسمومة (هو •• ابو الجود هرب ، هو ••) ويظل ابو الجود بين شد وجذب حتى يتيقظ في أعماقه ضميره الوطني فيذهب في اليوم الثاني من تلقاء نفسه الى رجال التبرع ويلقي بين ايديهم بالمال وان السبب الذى جعل هذا الضمير المتقاعس ان يتيقظ هو حلم رآه في الليل،فقد رأى ان المدينة قد اصبحت بلقعا وان الناس جميعا ينزحون عنها هاربين وداره، ذاك الحلم الزاهر ، قد اصبحت خرابا في خراب ، وابناءه قرة عينه قد قضوا تحت انقاضها •

لقد انتشر حبر تبرعه في السوق فجعل أهلوه يتواردون الى دكانه طوال ساعات النهار مهنئين مباركين ، على حين كانت بسمة لا تفارق شفتيه •

ومع ذلك ، فانا اعتقد ان القارىء سيظل يحمل لابي الجود صورة مقرونة بالسلبية البغيضة ، وسيظل يرى فيه شخصا مكرها لما قام به ، وليس بطلا ، فلو لم ير داره التي يزمع شراءها انقاضا ، واولاده ـ قرة عينه ـ أشلاء تحت الانقاض لما تحرك في نفسه وتر •• والقصة بعد ذلك ذات تسلسل رائق وحبكة قوية •

أما قصة (الجزاء) فهي صورة حية صادقة لناحية من نواحي المجتمع ، وهي تصدق في العراق ، كما تصدق في حلب او غير حلب ، فالمجتمع العربي يكاد يكون متشابها في كثير من عاداته واخلاقه ، والقصة التي تعني بوصف عادة اصطحاب الامهات لاولادهن الى حمام النساء ، وما يرافقه من أخذ ورد بين صاحبة الحمام من جهة وبين الام والنسوة أنفسهن من جهة اخرى ، فمنهن من كن يعارضن في دخول الاولاد للحمام أشد

المعارضة ، ومنهن من لا يرين ضيرا في ذلك خصوصا اذا لم يكن الماء قد وصل الى (قسطل الفتى) اي انه لم يبلغ دور البلوغ بعد ، وقد كانت الصبايا أشد المستنكرات ويهربن من ناظريه متلفعات بمآزرهن بعكس العجائز اللاتي كن يبدين تسامحا ودفاعا ايضا ، ثم تمضي القصة في وصف ما يدور في الحمام وصفا دقيقا رائعا يملأ النفس ارتياحا واعجابا ، خصوصا اذا كان القارىء من اولئك السعداء الذين رافقوا امهاتهم الى الحمام فان الذكرى ترجع به الى تلك الايام الخوالى ، يوم كان يجلس امام امه وساقيها تلتفان حول وسطه ككماشة من حديد .

انها صورة جميلة لناحية قل من يلتفت اليها ولكني مع ذلك أرى ان الزاوية التي عولجت بها القصة لم تكن بالنقطة التي يجمل الابتداء منها وعندي انها افسدت الشيء الكثير من فنية القصة .. فجعل عملية التذكر لكل هذه الدقائق التي مرت بالفتى ، وهو في قاعة الدرس بانتظار العقاب الذى سيناله من المعلم لتخلفه عن كتابة (الجزاء) الذى فرضه عليه صباح امس والذى فوت عليه كتابته ذهابه مع امه الى الحمام ، لم يكن بالتناول الموفق ، فلو جعل المؤلف عملية تداعي هذه تتوارد على الفتى وهو في فراشه بعد خروجه من الحمام لكان اوفق .. ولكن هذا لا يمنع القول من انها صورة صادقة وحية لاحدى عادات مجتمعنا العربي ولم يرجها غير هذا (الجزاء) الذى كان اشبه بالاصبع الزائدة ..

ومثل هذه الزوائد توجد في بعض قصص المؤلف فتشوه الصورة، وتبعدها عن فنية القصة .. ففي قصته (العودة الى الروضة) و (الشاهد) حشر لا مبرر له ويشبه الكلف في العين .. فقد اثبت في هاتين القصتين دفاع محام هيأة فيمكتبه ليلقى به أمام المحكمة ، ولم تكن هناك ضرورة تستدعي ذلك . فأنا كقارىء لا يهمني ما قال المحامي بالنص من دفاع الا اذا كان فيه ما يوجب ايراده للتدليل على حوادث هي من صميم القصة ، او ان فيه من الطرافة ما يحبذ سوقه ، اما ان يثبت قول المحامي لا لشيء الا لمجرد تثبيته ليس غير ، فهذا من شأنه ان يفسد روح القصة ، ثم ان

ما ورد من دفاع في هاتين القصتين بعيد عن الذلاقة وبعيد عن الطرافة كذلك ، وان اي محام آخر غير هذين يستطيع قوله دون تحضير او اعمال فكر ، فتلك اشياء تصبح عند المحامي من صميم المهنة فلم تكن هناك اذن ضرورة لاثبات هذين الدفاعين سوى تشويه القصتين بغير موجب •

في كتاب (الاسس النفسية للابداع الفني) للاستاذ مصطفى سويف ص ١٨٥ حوار للقصصي الانكليزي سومرت موم أداره على لسان أحد أبطال قصصه ، كعلاج للتخلص من الفتاة التي يحبها قال :

ـ لم لا تكتب قصة عنها ؟

ـ انا ؟ ••

ـ أتعلم أنها الميزة الكبرى للكاتب على غيره من الناس ، عندما يتعسه شيء ويصيبه بالبؤس والشقاء يستطيع ان يضع الامر كله في قصة •• وقد علق مؤلف الكتاب على هذا الحوار قائلا (وهذا فهم صحيح لنظرية التسامي ، فالكاتب يستبدل بالهدف القريب وهو هذه الفتاة التي يحبها هدفا آخر ذا قيمة اجتماعية هو القصة فيتخلص من تعلقه بحبيته ويحصل على القصة •

وعلى هذا الاساس ، يكون الاستاذ فاضل السباعي بحكم مهنته كمحام قد أضنته المهنة نفسها ولم يجد فيها منفسا للتعبير عما يمور في نفسه من دفاع يقوله امام القضاء فراح يورده في كتاباته ليريح شعوره من هذه الناحية على الاقل ، ثم أني شعرت وانا اقرأ القصتين بما يطلق عليه عندنا بـ (العنتريات) نسبة الى عنتر بن شداد • تصور شخصا مسكينا مستضعفا تكاد تبتلعه الهوة التي أوجدناها له ، ثم نبرز له فارسا ممتشقا سيفه • ينتشله في اللحظة الاخيرة • ومثل هذه القصص ، تستهوي العامه والسذج من الناس •

وأنا لم ارتح كثيرا لهاتين القصتين رغم ما بهما من حس انساني • أما قصة (الترعة الاخيرة) فهي أقرب ما تكون الى الرمز ، وقد

نجح المؤلف في تصوير الفكرة على ذلك النحو الشائق أيما نجاح .. تبدأ القصة بالحاح الطلاب على المدرس حين يدخل عليهم القاعة أن يحكي لهم حكاية ، وينصاع المعلم لهم ويضرب عن الدرس صفحا ويمضي يسرد عليهم قصة الترعة الخيرة التي طمع فيها اللصوص وقطاع الطرق وحين عجزوا عن اغتصابها اشاعوا فيها الخراب ، وما يكاد القاريء يمضي في القراءة حتى يدرك ان الترعة هذه لم تكن غير « قناة السويس » وان الاخوة (امية) و « هاشم » و « عدنان » و (ايمن) و « طارق » و (نصير) الذين هبوا لنصرة أخيهم الكبير « همام » لم يكونوا غير الدول العربية التي وقفت جميعا في وجه الطغاة . والقصة بعد شائقة ذات تسلسل رائق وتوضح بجلاء ما للمؤلف من قوة تخيل .. ويتسق مع هذه القصة من حيث القوة والحبكة ، قصته الاخرى « عينان زرقاوان » فهي صورة موفقة لانفعالات فتاة تضطرها الحاجة الملحة ان تعمل لدى شخص هو مثال لدناءة النفس وحقارة الاخلاق ، اولئك الذين يعمدون الى توظيف الفتيات لا لشيء الا لكي يجعلوهن العوبة في ايديهم القذرة ، وفتاتنا هذه هي احدى اولئك اللاتي يدفعهن العوز الى العمل .. رئيس عمل يفتح مكتبه لفتاة تعمل عنده ، وما يكاد يجعلها تطمئن بعض الشيء حتى تطفو حقارته كلها وتتجمع في عينيه لتقئيها نظرات قذرة تملؤها خزيا وعارا ، وحين تشعر الفتاة باقتراب السفيه منها تقف منتصبة واعماقها كلها تغلي ، فتصفعه بقوة وتنطلق الى الشارع حيث الصخب وضجيج السيارات ، والناس تروح وتغدو الى غاياتها دون ان يدري احد انها تمردت .. ثارت على الذئب .. صفعته .

وبعد ، فهذه ملاحظات دونتها أثناء ما كنت أقرأ القصص ، وليس لها ان تعطي حكما قاطعا وليس لها كذلك ان تنتقص المجهود الكبير الذي يقوم به الاستاذ فاضل السباعي في خدمة الفن القصصي بصورة خاصة والادبي بصورة عامة . واذا كنت لم اعط بعض القصص حقها كما يجب . فعذرى في ذلك ان ما قومته لا يخلو من خطأ .

الحي اللاتيني

قد يظن القارىء لاول وهلة وهو يقرأ عنوان هذه الرواية ، ان حوادثها كلها أو معظمها تدور في ذلك الحي الباريسي المشهور « بالحي اللاتيني » وانه سيجد للحي معالم واضحة بينة يستطيع معها أن يرسم له في ذهنه صورة مقاربة ان لم تكن مطابقة تماما • وانه سيقف على عادات واخلاق وطباع اهل الحي ، والاسلوب الذي يتبعونه في الحياة أو الطريقة التي يتخذونها للتعبير عن وجودهم كما فعل الاستاذ نجيب محفوظ في « زقاق المدق » مثلا • ولكنه – اي القاريء – ما ان يمضي في القراءة حتى يدرك ان العنوان الذي اتخذته هذه الرواية اسما لها لا ينطبق عليها ، ولا يتصل بها ، بل ان الحي المذكور لا يذكر في الرواية كلها غير مرات معدودات وبصورة عرضية •• وشيء آخر يحسه القاريء وهو يقرأ الفصول الاولى من هذه الرواية ، يحس ان الهيكل الخارجي يشبه بعض الشيء هيكل رواية : الجريمة والعقاب لدستوفسكي ، فهو ما ان يجد مناجاة البطل لنفسه على ذلك النحو من الالحاح حتى يقفز الى رأسه فورا « راسكولينكوف » بطل الجريمة والعقاب ويتذكر مناجاته لنفسه في كل خطوة يخطوها ، ومما يقوي هذا الظن في نفس القارىء ، حيرة بطل « الحي اللاتيني » واضطرابه ووصوله الى غرفته « •• دون ان يفهم تماما كيف وصل اليها » (ص٢٢) كما كان يفعل (راسكو) تماما ولكن القارىء رغم ذلك يتغاضى عن هذا الاحساس ولا يعيره التفاتاً حتى يفاجأ بهذه العبارة « ثم انفتل بغتة • فألم بباب السينما الملامة اخيرة كالمجرم يعود

دائما الى مكان جريمته » (ص٤٠) حين كان البطل ينتظر الفتاة التي تعرف عليها في السينما ، وحينذاك فقط يدرك تماما ان المؤلف كان واقعا تحت تأثير « الجريمة والعقاب » حين كان يكتب روايته • وان هذا التأثير ظل يرافقه في الفصول الاولى ، اما فيما بعد فان المؤلف يتحرر منه شيئ فشيئ ا• ويكاد يمحى اثر مفاجأة البطل لنفسه واذا كان « دستويفسكي » قد عمد الى هذا النوع من المناجات فلانه كان يتوخى ـ الى جانب الصور الضخمة التي يعرضها عن الحياة الروسية ـ المحاكاة العقلية البحتة والتحليل الدقيق للنفس واظهار تناقضاتها وانفعالاتها ونزواتها ودقائقها أكثر من أي شيء آخر • ومن الواضح ان « راسكولينكوف » شخصية ابتدعتها مخيلة ديوستوفسكي وحده ، وقد يصعب علينا اذا رحنا نبحث لها عن شبيه ، اما بطل رواية « الحي اللاتيني » فشخصية سوية عاشت حياتها المضطربة في باريس ، فالاغراق في هذه المناجاة في رواية الدكتور ، كان يفسدها في كثير من الاحيان ،ومع ذلك فان القارىء يمضي في القراءة • مأخوذا بحسن العرض وجمال الاسلوب وبراعة الدكتور في الوقت والانتقال وهو يخمن في كل فصل انه سيواجه بشيء سيأخذه الدكتور معه ويخوض واياه الحياة الباريسية يخوضها حتى الاعماق ولكنه سرعان ما يفاجأ بصدمة قوية حين يجد انه قد اوشك على الفراغ منها ، وهو ما زال واقفا لم يتحرك بعد •• وبغتة يصرخ بعنف « وبعد •• ماذا ؟• » وتبدأ فصول الرواية تتراءى له ، ويتمثل البطل وهو في طريقه الى باريس ، يتمثله خجولا قلقا مضطربا لا شخصية له البتة ، فها هو ذا لا يقوى على قرع باب صديقه كامل ، وها هو ذا كامل يفاجئه ويقدمه الى صحبه ، فيقعد وهو لا يدري أي شيء يقول ، ثم لا يلبث حتى يهرب ، وها هو مع صحبه أحمد وصبحي وربيع ، وهم يعزون عدم وجود فتاة معه الى خجله وحيائه فيدعهم ليلتقي فتاة تسير في الشارع ، فتهبط عليه الجرأة فجأة ، ويتقدم منها ليكلمها بشجاعة ثم يأخذها الى غرفته • ويتعرف بعد ذلك على ليليان ومرغريت ويقضي معهما وطراً ، حتى يلتقي بجابين ، ويحس انه قد وجد الفتاة التي

كان يبحث عنها ، ويخمن القارىء ان علاقة البطل معها ستكون طاهرة شريفة خالية من كل دنس وذلك بعد ان ذكر له المؤلف شيئا عن حياتهما واظهرهما بمظهر من لا يبحث عن غير الحب الخالص البعيد عن الغايات الدنيئة ، ولكنه يفاجأ أيضا بجابين تطلب الى البطل ، بعد ان قطعا شوطا في حبهما لا بأس به ، تطلب اليه الا يقرأ لها قصيدة « الحرمان » التي سبق له ان قرأها لها في احدى الامسيات ، ويستجيب لها البطل ، ولم يقرأ لها في تلك الليلة قصيدة الحرمان ويسقطان في الوحل .. وتمضى جانين تذيق عشيقها ألوان الحب الباريسي العجيب ، فتدعه يتمتع بها بعد ان منحته كل شيء .. وتمضى حياتهما هكذا ، والقارىء ينتظر شيئا ، ويطول به الانتظار وهو يمضى في القراءة سطرا سطرا ، وبين الحين والحين يهمس مع نفسه « وبعد ... ثم ماذا ؟.. » لا شيء أبدا ، جانين والبطل ينعمان بحبهما ولا شيء غير ذلك ، ويعود البطل الى بلده في اجازة ، وترسل اليه جانين بطاقة ، وترسل اليه رسالة ، ثم ترسل اليه بنبأ تعلمه فيه انها حامل ، ويخيل للبطل ان امه تقول له اشياء واشياء ، فيمسك بالقلم ليكتب لجانين يخبرها انه لا شأن له بالموضوع ما دامت تعرف شبابا غيره ، ويندم ، ويعذبه هذا الندم ، ويشعر انه جبان ونذل وحقير ، ويظل تحت هذا العذاب الى ان يعود الى باريس ، فيذهب توا الى المستشفى ، وقد كان صديقه فؤاد كتب اليه يخبره انها اجهضت وانها الآن في المستشفى ، ولكنه لم يجدها ، ويبحث عنها ولكنه لم يجدها أيضا ، فيستسلم الى اليأس ، ويمضى في تحضير رسالة الدكتوراه وفي تلك الاثناء يخطر له ولصديقه فؤاد وصبحي فكرة تشكيل رابطة تجمع وحدتهم ، ولكن هم الرابطة كله يبقى محصورا في القاء الخطب فيما بينهم ، ثم لا يجد لها القاريء اثرا بعد ذلك ، ويتقدم البطل برسالته للمناقشة ، فينجح ، وحينذاك يخبره صديقه احمد انه رأى جانين أكثر من مرة ، ولكنه فضل الا يخبره حتى يفرغ من رسالته . ويذهب معه الى حي « سان جرمان » يبحثان عنها ، ولم يجداها ، ويكررا العودة مرة ومرة ، حتى يعثر عليها البطل ، وهنا يتوقع القاريء ان يجد حرارة وعمقا في هذا

اللقاء ، ولكنه يفاجأ ببرود كبير ، وكل ما يفعله البطل هو انه يأخذها الى مطعم ، ثم يذهبان الى غرفتها ، ويفهم هنـاك انها اصبحت من « فتيـات الرصيف » وفي تلك اللحظة تدفع اليه بمذكرات كانت قد كتبتها ، ولا يجد البطل وقتا افضل من ذلك الوقت لقراءة المذكرات ، فيقعد ليقرأ ، ويقرأ ، وتجتاحه موجة عنيفة من شعور غامض ، ويطلب اليها ان تقبله زوجا • فيرتج عليها وتوافقه ولكنه ما ان يذهب ويعود حتى لا يجد لها أي اثر •• ويرجع البطل الى بلاده •• يتمثل القارىء هذه الصور الخفيفة وينظر في السرد التقريري الممل الذي كان يرافق الفصول الاخيرة وفي البرود الذي كان يتمشى مع السرد ، فيثب امامه فجـأة كتاب « عصفور من الشـرق » ويمضى ليستعيد ذلك الصراع العنيف الذي كانت القصة زاخرة به ويتأمل شخصية توفيق الحكيم القوية ، فيشعر بالهوة التي تفصلهما •• اجل ان بطل رواية « الحي اللاتيني » حاول ان ينقد بعض عادات الشرق ولكنه لم يفلح ابدا وجاء نقده باهتا باردا لا عمق فيه ولا روح ـ وكل ما اخذه البطل على صحبه هو ظهورهم في الشوارع مع الفتيات ، واسلوب التحيـة التي كانوا يتبادلونها ، و ••• وخوف الفتاة الشرقية من جسدها ، وهي ملاحظات جد عابرة ، لا تأخذ بانتباه القارىء ، وما عدا ذلك فان للدكتور في الرواية مواقف رائعة ، والتفاتات بارعة لايسع القارىء الا أن يقف أمامها طويلا ، كقوله مثلا في التعبير عن قلق البطـل « ونهض من سريره ثائر الاعصاب ، نقطة الماء • نقطة الماء هذه التي تسقط في المغسلة تثير حنقـه بصوتها الرتيب ، انها تسقط كل عشرين ثانية تقريبا ، وكلما سقطت كان لصوتها نقرة تحدث في فكره ثغرة جديدة تقطع سلسلة افكاره • وشـد المولب شدا محكما ، حتى اذا تيقن من انقطاع النقطة ، عاد فاستلقى على سريره ، طبعا ان بوسعه الآن ان يفكر بهدوء أو ينام براحة • » وغيرها من الالتفاتات البارعة ، وحسب الدكتور من الرواية هذه الالتفاتات فقط •

هذا واني لاذكر تماما ، انه سبق لي ان قرأت بعض فصول هذه الرواية في مجلة « اهل النفط » على انها قصص مستقلة ذات كيان منفرد ، كالفصل السابع (ص٦٧) والفصل الثامن (ص٧٨) ومثل هذا العمل يوحي الى ان بالامكان رفع بعض فصول الرواية دون ان يؤثر ذلك على الفصول الباقية أو على سير الرواية العام .

تعريق "أيام زمان"

من المعروف ان المسرحية الجيدة لا توجد الا بوجود مسرح دائم يتوفر فيه كل ما يتطلبه العمل المسرحي من امكانيات فنية وبشرية وتلعب عليه فرق تضم زمرة من الموهوبين من كلا الجنسين تتفهم طبيعة العمل الذي تمارسه تفهما عميقا وتتمتع بثقافته مسرحية خاصة وعامة شاملة .. يضاف اليه جمهور مسرحي ذواقة يقدر العمل الفني ويعطيه حقه من الرعاية والتكريم . ويرتاد المسرح لا لكي يتخلص من فراغ لا يدري كيف ينفقه وانما لانه ينشد المتعة الفنية الخالصة اولا والافادة مما يعالجه المسرح من مشاكل حياتية وامور عاطفية وذهنية ونفسية ثانيا ، ومن الطبيعي ان مسرحا كهذا يوجد كتابا مسرحيين يغذونه باستمرار بالمواد الاولية – المسرحيات – التي يحولها المخرج الى كائنات حية تتفحص الادوار التي رسمها المؤلف كما لو انها تعيشها في الواقع وليست دمى تتحرك دونما عاطفة أو روح ، التمثيل روح قبل أن يكون واجبا يناط الى هذا أو ذاك .. وحيث ان الغاية من كتابة المسرحية هي ان نجد طريقها الى المسرح لتمثل لا ان تقرأ شأنها شأن الرواية أو القصة ، فان وجودها رهين بوجود المسرح ، فاذا انعدم المسرح الكامل انعدمت المسرحية الجيدة .. هذا امر بدهي كما اعتقد ، لذلك نرى ان البلد الذي يفتقر الى مسرح تتوفر فيه الامكانيات اللازمة فان الجماعة التي تتبنى العمل المسرحي وتعمل على خلق وعي مسرحي لدى جمهور ذلك البلد ، ان مثل هذه الجماعة تواجه مشاكل

وصعوبات لا حصر لها ، فهي اذا وجدت مسرحا تمثل عليه شكت من عدم وجود أبسط الاشياء التي يتطلبها المسرح ، واذا عثرت على بضعة افراد يقبلون العمل معها ، اضطرت الى اعطائهم أدوارا غير مؤهلين لادائها أو غير قادرين على استيعابها وخاصة اذا ارادت لهم ان يتقمصوا أدوارا نسائية • واذا وجدت مسرحية يمكن تحويلها الى عمل عجزت عن ايجاد كاتب مسرحي يمدها باستمرار بمسرحيات جديدة ، واذا تهيأ لها جمهور يشاهد عملها فانها تحتاج الى قوة كبيرة لارضائه خاصة اذا كان هذا الجمهور لم يتقبل بعد هذا الفن الذي يعتبر جديدا عليه ، واذا حضت بمسؤول يقدر ما تقوم به فيقدم لها النزر اليسير من الرعاية المادية والمعنوية جاء اخر فيمحو ما قام به الاول •• وهكذا تظل في كفاح شاق وعذب لا مثيل له حتى تستطيع في النهاية ان توجد بداية طيبة لمن يأتي بعدها ••

ومما لاشك فيه ان العراق ما زال يفتقر الى وجود مسرح تتوفر فيه الامكانيات الفنية الحديثة والقابليات البشرية التي تديره ، ويفتقر أيضا الى فرق تضم مختلف القابليات الفنية والثقافية ، فهي لذلك تعاني من مصاعب لا حصر لها • وحيث ان الحديث عن المسرح والعاملين فيه يطول جدا اذا اردنا ان نتوسع في تحليل المشاكل والمصاعب • فاني سأقصر بقية هذه الكلمة على احدى هذه المشاكل باعتبارها من المشاكل المهمة التي تواجه الفرقة التي تحاول العمل المسرحي في بلد متأخر مسرحيا كالعراق • وهي انعدام وجود النص المسرحي الجيد ، فلاجل ان تبدأ أية فرقة في أي بلد العمل فلابد من وجود مادة مكتوبة تحولها الى عمل حي • وبغيرها يستحيل عليها القيام بأي عمل • وحيث اننا بينا في غضون هذه الكلمة ان وجود النص المسرحي الجيد يتطلب بالضرورة وجود مسرح تتوفر فيه الامكانيات الفنية الحديثة ، فليس امام الفرقة التي تتطلع الى العمل سوى امرين : ان تستعين بالمسرحيات الجيدة التي تمثل في البلاد التي يزدهر فيها المسرح فتعمل على ترجمتها الى لغة بلادها الفصحى ومن ثم تقوم بتمثيلها ، وان تقوم بتحويل بعض هذه المسرحيات وخاصة المسرحيات التي تلائم طبيعة

مجتمع ذلك البلد الى اللهجة العامية وبهذين العملين نستطيع ان توجد مادة لعملها الى ان يوجد الكاتب المحلي ، وقد قامت الفرق المصرية في بداية تكوينها ، وبعد ان تخلص المسرح نفسه من الجوقات الموسيقية • على هذا الاساس فكانت تقدم اعمالا أجنبية باللغة العربية الفصحى ، الى جانب تمصيره واعادة كتابتها باللغة المصرية الدارجة ثم تهيأ للعاملين فيها كتابة مسرحيات محلية • ومع ذلك وبالرغم من مرور قرن كامل على وجود المسرح المصري • فانه ما زال حتى الان يشكو – باستثناء بضعة كتاب يقف في مقدمتهم الحكيم – من عدم وجود مؤلفين مسرحيين على مستوى عال من الكفاءة والمقدرة •• ومع ان الفرق عندنا استعانت بالترجمة في بعض الاحيان • الا انها كانت في الاغلب ، لا تحسن الاختيار أو انها تقتصر على مسرحيات لم تعد تتماشى مع متطلبات العصر الحديث وتعد تمثيلها سنة بعد أخرى • وأسباب ذلك معروفة لدى طلاب فرع التمثيل في معهد الفنون الجميلة وبعض اساتذته ، واستعانت أيضا بتمثيليات محلية ضعيفة البناء والتركيب ايمانا منها انها توجد فرص لاخرين فيتشجعون للكتابة للمسرح •• أما عملية التعريق فلا أظنها حظت بالعناية اللازمة وأغلب الظن ان سبب ذلك يعود الى ان اقتصار بعض الفرق عندنا على مسرحيات عالمية معينة هو الذي حال دون ذلك •• وحين وجدت ان فرقة المسرح الشعبي تقوم بتعريق مسرحية – المفتش العام – لكوكول اعتبرته تفهما طبيعيا من العاملين فيها لحاجات المسرح عندنا وتحولا ضروريا عن الدائرة التي لا يريد البعض الخروج منها •• واختيار مسرحية – المفتش العام – بالذات للتعريق كان موفقا • ولكن هل استطاع – المعرق – ان يقوم بعملية التعريق كما ينبغي •• وهل وفق الاستاذ جعفر السعدي في اخراج هذه المسرحية ؟؟•• فمما لاشك فيه ان تحويل مسرحية أجنبية الى اللغة الدارجة ، وجعل ابطالها يتقمصون شخصيات محلية تقوم بأدوار وقعت حوادثها في البلد نفسه ليس بالامر السهل كما يبدو لاول وهلة •• فان عملا كهذا يتطلب من – المعرق – ان يكون ذا ثقافة مسرحية جيدة ومطلعا على الامور

المسرحية الاخرى ، فهو يقوم أولا باختيار زمن يوافق زمن المسرحية التي تدور فيه حوادثها • وقد وفق ـ المعرق ـ في اختيار العهد العثماني مسرحا لحوادثه •• وان يدير على لسان شخوص المسرحية كلاما يوافق الفترة تلك بحيث تبدو كما لو انه صورة حية لها • وان يعمل على تجسيد الهدف الذي يرمى اليه المؤلف نفسه فتتحقق الغاية من التعريق •• والذي أراه انه لا المعرق ولا المخرج استطاعا ان يوفقا كثيرا الى ذلك ، فجاءت أكثر المشاهد مهزوزة لا تهدف الى شيء • وحتى مواقف الضحك القليلة التي ظهرت لم تكن بسبب المفارقات الكبيرة التي كانت تحدث في وسط اجتماعي متفسخ وكان هذا هدف المؤلف ـ وانما تفوه بعض شخصيات المسرحية بعبارات ذات دلالات جنسية •• ومع ذلك ، فقد كان بامكان المخرج استغلال بعض المواقف المضحكة استغلالا كبيرا ولكنه لم يفعل ، واغلب الظن ان السبب يعود الى طبيعة المخرج ذاته • فالذي أراه انه اميل الى اخراج المسرحيات الدرامية منه الى اخراج المسرحيات النقدية الفكاهية •• وعندي انه لو حور في النص قليلا ، وجعل دخول الموظفين على المفتش المزيف يبدأ بالطبيب فيغتاب رفاقه كلهم ويعطيه نبذة عن كل واحد منهم فان دخول الباقين عليه واحدا واحدا وهو يعرف من تصرفاتهم الشيء الكثير مع اضافة حوار يناسب هذا التغيير والامعان في استغلال الحركات الصامتة ، أقول لو كان الامر كذلك لكان بالامكان ان يستحوذ هذا المشهد وحده على الشيء الكثير من اعجاب المشاهدين •• وكذا الامر مع المشهد الاخير ، فقد كان بالامكان استغلاله هو أيضا الى أقصى حد •• فبعد ان يكتشف ـ انور باشا ـ انه قد خدع من قبل محتال تقمص شخصية المفتش العام ، واعتقاده ان المفتش العام الحقيقي هو أيضا محتال آخر جاء يقوم بنفس الدور الذي قام به سلفه •• ان اعتقاده هذا ، كان مناسبة طيبة جدا لاستغلال الروح الانتقامية التي تتولد فيه ، فيمعن في السخرية منه والهزو به وايذائه حتى اذا اكتشف انه المفتش العام الحقيقي يكون قد روى غليله

منه فيتوجب عليه الاغماء . ولكنه لم يفعل فجاء المشهد مبتسرا يشكو هو الاخر من روح تتفهمه .

ومهما يكن ، فان حكمنا على العمل المسرحي في العراق ينبغي ان يكون متواضعا ، وبعد ان نضع نصب اعيننا جميع المصاعب والمعوقات التي تعترض الفرق العاملة لدينا . فاذا فعلنا ذلك ، نجد ان فرقة المسرح الشعبي قامت بمجهود رغم الملاحظات والمأخذ ، تشكر عليه ويجعلنا نطالبها باستمرار بأعمال نرجو ان تكون ذات مستوى أعلى .

رأي حول مسرحية فوانيس

تذكرت وانا اشاهد مسرحية ـ فوانيس ـ التي قدمتها فرقة المسرح الفني الحديث على قاعة مصلحة السينما والمسرح ـ الملك يموت ـ التي قدمتها على قاعة الخلد في العام الماضي نخبة مؤلفة من طلاب جامعة بيروت ، فلقد كتب عنها الشيء الكثير وجله كان مديحا وثناء باعتبارها من المسرحيات القلة الجيدة التي تعرض في العراق .. ثم رحت اربط بينه وبين موجة السخط التي اثيرت حول مسرحية ـ ماكو جارة ـ التي قدمتها فرقة المسرح الشعبي على تلفزيون بغداد باعتبارها أول مسرحية عراقية طويلة تقدم على شاشة التلفزيون منذ ان عرضت مسرحية يوسف العاني الممتازة ـ ليطة ـ ومرد النقد العنيف الذي واجهته هذه المسرحية هو لكونها تقدم من قبل فرقة ذات مستوى فني جيد وان أغلب العاملين فيها ذو قابليات فنية جيدة . وحين واجهت الجمهور بمثل تلك المسرحية قابلها بشيء كثير من العنف للخيبة المريرة التي شعروا انهم يمنون بها ، خاصة وقد سبق لهم ان شاهدوا مسرحيات طويلة لفرقة الريحاني وغيرها !. وحين اعلن عن تقديم مسرحية عراقية طويلة لفرقة تعتبر من فرق الدرجة الاولى ويتمتع اعضاؤها بثقة الجمهور المثقف لقابلياتهم الفنية الممتازة راح الناس يترقبونها ويستعدون لمشاهدتها ولا اعدم الواقع اذا قلت ان كثيرا من المشاهدين الغوا ما كانوا قد ارتبطو به ليتمكنوا من مشاهدة مسرحية ـ ماكو جارة ـ ..

لذلك فقد كان ـ غيظهم ـ عنيفا ومرا .. ومهما يكن فان دل ذلك على شيء فعلى ان الجمهور العراقي يقدر تماما العمل الجيد ويثور على العمل الردىء خاصة اذا جاء من فرقة محترمة وبعد وعود مغرية بدليل انه لم يول أي اهتمام لما يقدم على شاشة التلفزيون من لغو يسميه اصحابه تمثيليات لعلمه مسبقا ان من يقدم مثل تلك التفاهات لا يستحقون ان يكونوا موضع حديث أو نقاش حتى وان كان عابرا .. واذن . فان البعض حين راح يغطى الفشل الذي منيت به مسرحية ـ ماكو جارة ـ باتهامات باطلة وادعاءات لا وجود لها ليضفى على المسرحية شيئا من الاهمية كانت من قبيل ـ العزة بالاثم ـ أو أشبه باللعنات التي تصدر من شخص واجه لوما حادا قاسيا لقيامه بعمل ما كان من المتوقع ان يصدر منه فراح يرغى ويزبد ويوزع اللعنات يمينا وشمالا كيفما اتفق .. وعندي ان فكرة المسرحية ذاتها كانت أكبر بما لا قياس من قابليات المؤلف الناشئة ، اذ ليس من الضروري ان يرتدي شخص ما ثوب طباخ ويضع على يديه الدهن ليصبح طباخا ماهرا .

أقول ، رحت اربط بين هذا كله وان اشاهد مسرحية ـ فوانيس ـ التي قدمتها فرقة ـ المسرح الفني الحديث ـ ولا أقول انني شعرت بشيء من الحزن يعتصرني لاني لم اجد الصدى الذي كنت أود ان تحدثه في نفوس المعنيين بشؤون المسرح وتدفعهم الى العمل ، اذ من يدري ، فلربما كنت اريد من رد الفعل ان يكون سريعا اكثر مما ينبغي .. لا لان المسرحية بلغت حد الكمال في التأليف والتمثيل والاخراج ، ولكن لان من اليسير جدا اعتبارها من المسرحيات الجيدة التي تقدم على خشبة المسرح العراقي .. ومع ان فكرة المسرحية بسيطة ومطروقة وقد عولجت بكثرة . وتتلخص في ان رجلا عجوزا ثريا غير قادر على الانجاب يتزوج من فتاة يافعة لعوب طمعا في مالها . وكان لدى هذا الرجل سائق شاب كان قد رباه منذ ان كان ـ كيلو لحم ـ على حد تعبير السائق الشاب نفسه ، فتروح الفتاة كما يحدث في امثال هذه الزيجات ، تبحث عن شخص يقوم مقام الزوج العجوز ، ومن الطبيعي ان يكون السائق الشاب هو البديل المنتظر ، فتتمكن من اغرائه

وتقوده الى مخدعها وتنجب منه • مع انه كان يحب خادمة شابة تعمل معه في نفس الدار وتحبه الى اقصى حد ، ثم يشعر الفتى انه قد اجرم بحق سيده الذي رعاه ووثق به فراح يكفر عن ذنبه بما كان يقاسيه من عذاب نفسي ، وأفضل حل وجده لمشكلته هو أن يتجنب – سوسن خانم – زوجة سيده علا يستجيب لنداء الجنس فيها •• ومن الطبيعي أيضا ان تعمل زوجة كهذه على تحقيق شيئين ، أولا البحث عن بديل آخر وقد وجدته في سائق شاب يعمل عند معارف زوجها • وثانيا ان تثير حفيظة زوجها المخدوع على السائق المتمرد وقد حصل ذلك • فطرده الزوج مع الخادمة التي ظلت على وفائها له رغم كل شيء ••

من هنا نجد ان فكرة مسرحية – فوانيس – بمضمونها المتقدم بسيطة وقد اشبعت معالجة وخاصة من قبل الافلام العربية ، الا ان الجديد فيها هو طريقة عرضها • اذ انها لم تعرض وفق التسلسل المنطقي الذي عرضتها به ، انما حدث ذلك كله من خلال افكار مؤلف يحاول ان يكتب مسرحية ، فنرى اول ما نرى شخصا يمثل شخصية المؤلف يتقدم صفوف المشاهدين باتجاه خشبة المسرح يجلس في زاوية منه ثم يبدأ يتخيل حوادث المسرحية التي يريد كتابتها ويشكل في ذهنه شخوصها ، ثم يبدأ الحوار بينه وبين شخوصه الذين يجسدهم المخرج بنجاح فيبدون كما لو انهم اشباح تضج بهم مخيلة المؤلف ، ثم يحتدم الصراع بينه وبينهم فنراهم يتمردون عليه مرة ويتهمونه بالقسوة اخرى لكونه يجعل منهم دمى يحركهم كيفما يريد ويحدد لهم مصائر ما كانوا ليرضونها ، أو يتمرد عليهم وعلى نفسه ثم يستكين لتضرعاتهم فيهدأ ويدع خياله يصور له المشهد الذي يروم كتابته ••

كل ذلك بديكور خلو من الاثاث أو أي شيء آخر سوى طاولة صغيرة يجلس عليها المؤلف وستائر شفافة جدا لتشيع جو الخيال الذي يسبح فيه ، مما اضفى طابع الجدة على التأليف المسرحي في العراق • ويجعلنا نتذكر بيراندلو وغيره من الذين جعلوا النظارة جزءا من المسرحية •• ومع ان هناك ضعفا في المسرحية ذاتها كنت اتمنى الا يكون ، ومواقف تفتقر الى حوار اعمق

وصراع أقوى ومشاهد زائدة حشرت قسرا ودونما موجب ودون ان يكون لها علاقة بتسلسل المسرحية كمشهد ظهور أقارب الزوج المخدوع الذي لو حذف لزاد من قوتها ، أقول رغم كل ذلك ، فان اجادة الممثلين في أداء أدوارهم ما عدا ـ سوسن خانم ـ وداد سالم التي كنت اتمنى ان تكون اكثر حيوية وتفهما لطبيعة دورها ، وبراعة المخرج وقدرته على اضفاء الجو الخيالي على كثير من المشاهد بما كان يسلطه عليها من أضواء في دفقات سريعة حادة خاصة المشهد العاصف الذي بلغ حد الروعة ، مع حرصه على جعـــل حوادثها وشخوصها كائنات حية وليست مجرد اخيلة تدور في رأس المؤلف ، كل ذلك ، جعلني اتناسى ولو الى حين نقاط الضعف تلك ، واشعر بالفخر يملأ نفسي للقابليات الفنية العالية التي يتمتع بها بعض فنانينا ، تلك القابليات التي لو هيئت لها الامكانيات اللازمة والرعاية الكافية لاستطاعت ان تقدم الشيء الكثير ..

وأخيرا أود ان أقول ان ما اوردته هنا لا يعـدو ان يكـون ملاحظات سريعة قصدت بها تحية الفرقة لا غير ، وهي بالتالي قابلة للنقاش ولا ادعى اطلاقها كاحكام نهائية .

مسؤولية الفرد في المجتمع

ما من شك ان دراسة مجتمع ما دراسة جدية مثمرة هي من اصعب ما يواجهه الباحث الاجتماعي ، فلكي يعطى صورة واضحة عن المجتمع الذي يريد دراسته ، فأن عليه ان يلم بجميع جوانبه ، وان يتفهم تفهما واضحا واعيا الظروف التي مر بها • سواء كانت تاريخية أو نفسية أو اقتصادية • ذلك لان العوامل الثلاثة المذكورة هي التي تشكل طبيعة المجتمع وتحدد الاطار العام له • فتعاقب الحوادث التاريخية والرجات السياسية والعقائدية أو الدينية في مجتمع ما تحدث فيه من الاثار والمضاعفات ما لا يمكن التقليل من أهميتها ، بل انها تعد عاملا مهما في تغيير المجتمع أو زعزعة أركانه أو حتى طمس معالمه الاصيلة وتثبيت مفاهيم مشوهة لاتمت اليه بصلة من حيث الاساس •• وكذلك تعد عاملا قويا في بناء كيانه الاقتصادي أو تحطيمه وفي التأثير بصورة مباشرة أو غير مباشرة على ذهنية الفرد ونفسيته وتحديد سلوكه وفق طبيعة الحوادث وماهيتها ••

وحيث ان وجود الفرد في الحياة يتوقف على ضمان قوته وقوت اسرته ، فان للعامل الاقتصادي دورا كبيرا ومهما في تحديد طبيعة المجتمع وسلوك الفرد •• فاذا كان الجانب الاقتصادي في مجتمع ما ظالما قاسيا يتحكم فيه الاحتكار والسيطرة والاستغلال فان الفرد الذي ينشأ فيه يكون ذا نفسية معقدة وشخصية قلقة وذهن مجهد مضطرب لكثرة ما يفكر في الطريقة التي يحصل فيها على رزقه والوسيلة التي تكفل له امنه • والعكس يوجب العكس

وان لم يكن حرفيا ، أي ان المجتمع المبنى على دعائم اقتصادية قوية توزع فيه الثروات بصورة عادلة وانسانية ومعدوم فيه الاحتكار والاستغلال والسيطرة سواءكانت مادية أو بشرية•• ان مجتمعا يسوده العدل الاجتماعي والشعور الحقيقي بقيمة الانسان من حيث هو كائن حي وليس عددا أو حذاء أو كومة قش ، يوجد بالبداهة فردا سويا ذا كيان متميز وشخصيه واضحة ينعم بالاطمئنان الحياتي والاستقلال الذهني والنفسي والسلوك الصحيح •• والحكم هنا يطلق عموما من حيث النتيجة •

فالحوادث التاريخية والسياسية والدينية والذهنية اذن • والظروف الحياتية المادية المتأتية من النظم الاقتصادية العادلة أو الاحتكارية هي التي تشكل وتحدد طبيعة المجتمع ووجوده ، حيث ان وجود المجتمع يتوقف على وجود الفرد فانه يعتبر جوهر الشيء وقمته •• ودراسته كفرد من حيث هو انسان له احساسه الخاص وتركيبه المستقل ، ومن حيث هو فرد يعيش ضمن مجموعة من البشر في مجتمع معين يؤثر فيه ويتأثر به ويتحدد سلوكه من خلاله ، فان على الدارس اذن ، لاي مجتمع كان ان يكون ذا اطلاع واسع على التأريخ بصورة عامة وعلى تاريخ المجتمع الذي يدرسه بصورة خاصة ، وان يكون ذا دراية صحيحة بالنظم الاقتصادية والمادية ، وذا تفهم عميق لطبيعة التيارات الفكرية والفلسفية والنفسية وتطورها عبر السنين من خلال الفرد نفسه ، يتمكن من اعطاء صورة صحيحة أو مقاربة للمجتمع الذي يدرسه واني لاذكر بهذه المناسبة ان احد الباحثين اراد ان يدرس مجتمعا معينا ، وكان قد قدر لذلك ثلاثة شهور أو أربعة ، وحين ذهب اليه وخالط افراده واطلع على بعض ظروفه ، تفتحت امامه جوانب عديدة ومتشعبة لم تدر في خلده • ومضت ثلاث سنوات ولم يكمل دراسته عنه •

ومن الطبيعي بعد هذه المقدمة الوجيزة عن طبيعة دراسة المجتمع ان لا ازعم اني املك مثل هذه القابلية حتى أقوم بدراسة مجتمعنا دراسة شاملة او جزئية ، ولكن فقط وددت ان اضعها امام كل اولئك الذين يطلقون الاحكام الاعتباطية على السلوك العام والخاص للافراد أو للمجموعة البشرية

التي نعيش معها .. فسلوك الفرد ينشأ من ظروفه ومن ظروف المجتمع الذي يعيش فيه ، والاشارة الى ظاهرة اجتماعية ملحوظة ، أو الكتابة عن جانب حياتي واضح ، لا تعنيان بالضرورة وجوب وجود المؤهلات التي ذكرتها سابقا بالعمق الذي يجب توفره لدى الدارس الحقيقي .

فأنا هنا لست دارسا لمجتمع وانما مشير الى ظاهرة اجتماعية تكاد تكون شاملة وعامة في مجتمعنا العراقي بصورة خاصة والعربي بصورة عامة .

فمن المعروف ان الجانب السياسي ، أو الشعور السياسي العام هو الذي يسيطر بشكل حاد على غالبية أفراد مجتمعنا في حين نجد الجوانب الاخرى كالجانب العلمي أو الفني أو الثقافي أو الفكري مثلا تكاد تكون مضمحلة تقريبا ، بل ان الجانب السياسي لم يستأثر بكل هذا الاهتمام الا على جساب الجوانب الاخـــرى ، بعكس بعض المجتمعات التي لا يستأثر الجانب السياسي فيها الا بقدر ضئيل جدا . في حين يكاد يكون معدوما في بعضها الاخرى . فنحن نجد على العموم ان الشعب العراقي بكافة طبقاته وطوائفه تستحوذ عليه السياسة بشكل حاد وعنيف فالعامل والفلاح والمثقف والمتعلم والكاسب والتاجر يعنون بالسياسة عناية بالغة . بل انها تكاد تستأثر كل حديثهم ووقتهم وتفكيرهم ، حتى انه يندر ان نجد اثنين لا يتكلمان بغير السياســة في مجالسهما العــامة أو الخاصة بقــوة وعنف وصخب ، أو لا يستعرضان أمور الدولة والعالم سلبا كان ذلك أو ايجابا ، فما هو سبب ذلك .

ولكي يمكننا التوصل الى نتيجة مقبولة تفسر لنا هذه الظاهرة التي تكاد تكون مستحكمة لابد لنا ان نلقى نظرة سريعة الى الخلف ونركز على بعض الحوادث التي حددت هذا الشعور المتأزم على تعاقب السنين .

وبمــا اننا نؤمن ، كمـــا بينا ســابقا ، ان تصرفات الفرد الحياتيـــة واتجاهاته الفكرية والنفسية تحددها طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه ، فان الحوادث المتعاقبة التي مرت على العراق بصورة خاصة جعلت من الفرد العراقي شخصا حاد الطباع قلقا ، عنيفا ، اتكاليا . تعبث به العاطفة الفجة

وتسيره الاهواء المتضاربة ، لا يستقر على رأي ، ولا يلتزم بالمثل الخلقية العامة ، وتكاد الازدواجية بكل تناقضاتها تكون طابعه الخاص ..

ولو اننا تجاوزنا الادوار التاريخية التي مرت بالعراق منذ تغلغل التيار الشعوبي الفارسي الى المجتمع والمحاولات المستميتة في تمزيق الكيان العربي باشاعة مفاهيم شوهاء وفي تقويض الاسرة العربية المبنية على الصفاء والحب وتفتيت الروابط الاجتماعية المقامة على التعاون والصدق والوفاء ، ومسايرة الغريزة البدائية الى ابعد خطوطها المنحطة بحجة حرية التصرف الفردي ، وغيرها من المحاولات الاجرامية الكثيرة .. ولو اننا تجاوزنا كذلك الادوار الدموية والرهيبة التي ارتكبها التتار والقرامطة والعثمانيون وانتهينا الى فترة الاستقلال الجزئي الذي حصل عليه العراق بعد الحرب العالمية الاولى ، وانتقال السلطة الى عصابة حاقدة متسلطة جائرة تسير في الخط الذي كان يسير عليه الشعوبيون والحاقدون ، لوجدنا ان الفرد العراقي ، وقد عاش قرون الظلام والارهاب يحارب الطواغيت ، ويتمرغ على ارض مليئة بالسموم والفتن والاحقاد ، فان من الطبيعي جدا ان يكون شخصا عنيف النظرة ، عنيف العاطفة ، قلقا مشتت الرأي ، يملأ القيح صدره والحقد دماءه بالاضافة الى يأسه وبؤسه وشقائه .

وحيث ان الحكومات التي تعاقبت بعد ذلك ولم تكن لتمثل الشعب ، ولم تكن تستلهم مصالحه في جميع أدوارها ، بل كانت عبارة عن عصابة همها الوحيد سرقة قوت الشعب ورزقه والتحكم في رقاب الناس واستثمارهم لمصالحها الخاصة فان من الطبيعي جدا ان تنشأ الهوة بين الحكومة المتسلطة وبين الشعب نفسه وان تتسع الهوة هذه تدريجيا حتى تتم العزلة نهائيا بينهما .

ومن الامور المسلم بها ، انه بقدر ما كانت الثقة متبادلة بين الشعب والحكومة ، بقدر ما يكون التعاون بينهما وثيقا ومثمرا .. والعكس يوجب النفرة والعزلة ومن ثم محاربة الحكومة والتطويح بها ..

ومن الطبيعي أيضا ، ان الفرد متى ما شعر ان اموره وامور مجتمعه

ووطنه مناطة بأيد امينة تعمل لسعادته ورفاهيته بصدق واخلاص دونما تمييز بين جماعة وجماعة وتستلهم اماله وأمانيه في بناء مجتمع سعيد ، يسوده العدل والمساواة ، يضمن له ولاسرته ولابناء شعبه اللقمة الكريمة ويوفر له حرية القول والعمل والرأي وفق النظام العام والمصلحة العليا ، مجتمع يتساوى فيه الجميع امام القانون ، ولا يسمح للاحتكار أو للسيطرة ان ينفذ الى بعض الفئات ، نقول متى ما شعر الفرد ان امور مجتمعه ووطنه تسير وفق العدل والمساواة ، ينصرف هو لينام مطمئنا هادىء البال ، لا يعذبه القلق ولا يرهقه التفكير ويعمل بجهد واخلاص في تطوير نفسه وفكره وعمله .. ومن هنا في رأيي توجد المسؤولية بأروع صورها . مسؤولية الحكومة تجاه واجباتها ومهماتها في خدمة الشعب والوطن . ومسؤولية الفرد في الدور الذي ينبغي ان يؤديه تجاه نفسه ومجتمعه ووطنه ..

وبانعدام الثقة بين الشعب والحكومة . تبرز مسؤولية الفرد في الاطاحة بفئة غاصبة متحكمة لا تمثله ولا تستهدف خيره ، ومن هنو يتولى الفرد نفسه شؤون وطنه السياسية والاجتماعية ، فحيث ان الحكومة تزدريه وتحتقره وتسلبه قوته وجهده ، فان الشيء الحتمي ان يتولى هو أمور وطنه .. ويبدأ أول ما يبدأ العمل على اطاحة من يتحكم في مصيره ويصادر حرياته ويشوه ذاته ..

وهذا ما حدث للشعب العربي في العراق منذ السيطرة الفارسية حتى التحكم الفردي الاهوج . وهذا ما جعله يتولى امور وطنه السياسية والاجتماعية بالحدة والعنف اللذين انتهى اليهما ، فقد ظل يصارع بمرارة وضراوة جميع الطغاة المستبدين والحاقدين ويحارب السموم التي يبثها الشعوبيون والاستعمار في قتل الروح العربية واماتة الحس القومي واضعاف شخصية الفرد العربي وتفتيت كيانه عبر قرون طويلة من الارهاب والدعاء والدمار ..

وحيث ان النتيجة التي توصلنا اليها في السبب الذي جعل من الفرد

العراقي بصورة خاصة شخصا قلقا عنيفا حذرا يمتهن السياسة كحل نهائي للتخلص من التحكم والسيطرة هي طبيعية وسريعة أيضا ، فليس لنا الا ان نتطرق الى ظروف بعض المعارك التي خاضها الشعب ضد جميع القوى الحاقدة والشريرة • ومع ان التطرق الى مثل هذه النواحي يستوجب دراسة خاصة قد لا تتفق وطبيعة الحديث الذي بدأناه ، الا اننا نشعر ان الاشارة ولو بصورة مقتضبة الى طبيعة بعض هذه المعارك والصراع الطويل الدامي الذي خاضه الشعب من أجل تحقيق أهدافه ومثله ، هي ضرورية لكي تحدد الدور الذي ينبغي ان يقوم به الفرد في بناء نفسه ومجتمعه ••

وحيث اننا قد ذكرنا في غضون هذا الحديث الادوار الدموية والحوادث التاريخية التي تعاقبت على الوطن العربي ، وكذلك صراع الشعب المستمر مع الطغاة من الحاكمين الحاقدين والانتهازيين النفعيين والشعوبيين فان الفترة الطويلة التي قضاها الوطن العربي وهو يرزح تحت ظلم وارهاب وسموم الحكم العثماني هي أسوأ الفترات واشدها ارهاصا للفرد العربي • فبالاضافة الى الاستغلال الديني الذى مارسه الولاة الذين كانت ترسلهم الاستانة الى ووطننا لسلب خيراتنا واستثمار ارضنا وشعبنا ، فان المحاولات المستمرة في تتريك العرب وبث النعرات الطائفية والعنصرية واماتة الذات العربية ، والقضاء على الحس القومي وتقويض نظام الاسرة ، وتفتيت وحدة الشعب أنهكت الفرد العراقي بصورة خاصة وسلبته الكثير من اصالته وشخصيه ، وبانتهاء الحرب العالمية الاولى • حصلت بعض الاقطار العربية ومنها العراق • كما قلنا ، على استقلال اسمى ، حيث اقام الاستعمار فيها حكومات هزيلة تأتمر بأمرها وتؤمن مصالحها في النطقة وسمحت لها ايضا ان تقيم في داخلها بعض الاحزاب الصورية يترأسها اناس لا يقلون جشعا وحقدا وازدراء للشعب من الحكومات القائمة آنذاك ، وكانت الغاية واضحة من ذلك كله ، هي ايجاد صورة مزيفة لديمقراطية وحرية لم يكن الشعب يشعر بوجودهما على الاطلاق ، اللهم الا المناورات السياسية والدجل الاجتماعي باظهار العطف الكاذب للمواطنين والحرص المشبوه

على المصلحة العامة ، بل ان القحة كانت تدفع بعض الاحزاب الى استغلال عاطفة الجماهير وشعورها القومي لمصالحها الخاصة . ولكن الحس الاجتماعي كان قد بدأ يتيقظ في بعض النفوس الشابة ، والوعي السياسي الصادق يجد طريقه الى الاذهان المتفتحة .. كان الكثير من الشباب النير قد درس تاريخ أمته الرائع بشكل صحيح ومنظم ، وكان يشعر بشيء يغلي في نفسه وفي رأسه وهو ينظر الى الهوة التي انحدرت اليها أمته وقد كانت طليعة الامم في الحضارة والرقي ، ووطنه وقد كان موطن الفكر ومصدر الاشعاع ، وا لى الفرد العربي اليأس المستسلم وقد كان صلبا قويا ذا شخصية واضحة مستقلة ..

كان ينظر الى الحكومات القائمة وهي تسلب الشعب ، وتصادر حرياته العامة والخاصة وتستثمره لمصالحها الدنيئة . والى بعض الاحزاب وهي تبث سمومها في استثمار عاطفة الشعب ، في حين كانت اللقمة تسرق من العامل والارض تغتصب من الفلاح . والحريات تصادر من المواطنين والجهد يستثمر لحساب افراد قلائل والثروات تصدر الى الخارج .. فادرك ان عليه مسؤولية كبرى يفرضها عليه الواقع المؤلم الذى يعيشه وان عليه ان يحدد موقفه بشكل حاد واضح من الحكومات الاجيرة والاحزاب العميلة .. وراح يدير النظر حوله ، ووجد ان ما يريد القيام به كبير وضخم . فلكي يعيد لامته عزها ومجدها ، ولوطنه كرامته وقوته . ولشعبه كيانه وذاته ولمجتمعه عدله وصفاءه ، فان عليه ان يحارب في جبهات كثيرة ومتعددة وان يحارب بضراوة والحاح ..

فكيف يعمل والتفسخ بلغ اقصاه . والسموم التي بثها الحاقدون عبر القرون ما تزال تنخر كيان شعبه والافاعي التي اطلقها الشعوبيون تمتص دماء أمته قطرة قطرة .. بالاضافة الى العنعنات الطائفية والعنصرية التي تستحوذ على ابناء شعبه نتيجة الحوادث التاريخية التي مر بها وطنه .. هل يقعد ويستسلم للواقع المر المتهرىء ، يعنى بنفسه ولذائذه الخاصة وكأن الامر لا يعنيه ؟ ..

ومسؤولية كفرد .. كمواطن .. كعربي يمثل حضارة هي من ارقى حضارات الامم ؟ .. هل يقبرها في نفسه واذا فعل ، فهل يحق له ان يقال عنه انه مواطن عربي يحس الام شعبه وأمته في الحياة الحرة الكريمة .. فهو اذن أمام احد امرين .. أما ان يتحمل المسؤولية مهما كانت ضخمة وكبيرة وأما ان يفقد كونه انسانا يعي وجوده ووجود أمته ، فلا بد اذن ان يتحمل المسؤولية الضخمة على ما فيها من ارهاق يفوق الحد .. وبدأ يتدارس الامر بجد ، فلكي يفي المسؤولية حقها فان عليه ان يتفهم وضعه جيدا وهو أما ان يلتزم بما عاهد نفسه ووطنه والله عليه اولا يلتزم ..

ان الامور السياسية تعبث بها عصابة متحكمة ترتبط ارتباطا مباشرا بالاستعمار الغربي وتنفذ أوامره ، فحقوق الوطن السياسية اذن معدومة . ووطنه مشدود وتابع للسيطرة الخارجية ، والامور الاقتصادية يتحكم فيها بضعة افراد ويوجهونها لمصالحهم الخاصة والمجتمع الذى يعيش فيه وقف على جماعة معينة تعبث به وتسيره حسب اهوائها وارادتها .. سيطرة تحكم واستغلال بشري ومادى بشع .. جهد يسرق ، ولقمة تغتصب . وسوط يهتز في الاهواء لا يهاب الوجوه والشفاه اذ نطقت .. عبودية لم يشهد لها التاريخ مثيلا . فلكي تستعيد امته حضارتها ومدنيتها ، ولكي يعاد للوطن العربي كيانه الخاص المستقل ، وللفرد شخصيته وذاته . فلا بد من تحديد اهداف واضحة توضع موضع التطبيق والعمل بجد وحزم .. وحيث ان تمزيق الوطن العربي قد تم من قبل الاستعمار نفسه لتسهيل السيطرة والتحكم فيه فان وحدة المصير والنضال ضد الاستعمار والتخلف والسيطرة والقضاء على الكيانات المهمة التي يجب العمل من اجلها وحيث ان الفرد لا يشعر بوجوده كانسان الا اذا شعر انه حر في القول الذى يبديه والعمل الذى يختاره والارض التي يسير عليها ، فان الحرية هي الهدف الثاني الذى يجب ان يتحقق في المجتمع العربي . وحيث ان المجتمع نفسه تتحكم فيه الفوضى الاقتصادية والسيطرة الاحتكارية والاستغلال البشع ، فان خلق مجتمع جديد اساسه العدل والنظام والمساواة ، يتوفر فيه العمل

لكافة طبقات الشعب ، واللقمة الكريمة ، فان الاشتراكية هي الهدف الثالث الذى يتحتم تطبيقه .. اهداف ثلاثة متداخلة مع بعضها تستقطب كل ما يحسه الشعب العربي من آلام وآمال في الحياة الحرة الكريمة .. وحيث انه لا يمكن ان يتحقق شيء بدون الفرد نفسه فان على الفرد العربي الواعي أولا أن ينقلب على نفسه ويزيح ماتركته الرواسب فيها من تناقض وازدواجية واهواء عن روح الانسان الحي . وان ينقلب ثانيا على واقعه الفاسد بكل ما فيه من جمود وتفسخ وسيطرة .. فالانقلابية اذن شرط اساسي للفرد العربي اذا هو اراد ان يضع مسؤولية النهوض بأمته ووطنه امام عينيه ..

اهداف رائعة وكبيرة وضعها أمامه شباب واع متحمس أخذ على عاتقه مهمة تحقيقها مهما كلفه الامر من نضال وتضحية وفداء .. ومضت الاهداف تشق طريقها في الحياة بقوة واصرار وسهولة ايضا .. ان الخصوم اقوياء وعنيدون ، وليس من السهل ان يتخلى الاستعمار عن ثروات تزيد في رفاه شعبه ، وليس من السهل ايضا ان يتخلى الرأسمالي والمتحكم المستغل عن انانيتهما وتسلطهما .. ولكن الطبقة المستغلة : بالفتح هي الساحقة وهي وحدها تعرف كيف تتبنى هذه الاهداف وتعمل على تحقيقها . اذ ليس هناك ما تفقده اذ هي ناضلت في سبيلها وثارت من اجلها ، سوى بؤسها وشقائها وتعاستها .. وبفترة وجيزة استطاعت هذه الاهداف ان تستقطب جماهير واسعة من الشعب باعتبارها الاهداف الاصيلة المعبرة عن آلامها والممثلة لامانيها .. وحيث ان الاهداف هذه يتحتم تحقيقها وجود مجتمع تقدمي يساير التطور الحضاري للبشر ويواكب النهضة الاجتماعية الحديثة ويقضي على الاستغلال والتحكم والسيطرة الاحتكارية المادية والبشرية ، فهي اذن خطر كبير على جميع الحكومات التي تقيم حكمها على الارهاب والسيطرة وعلى الاستعمار المتنفذ .. وستكون الحرب بينهم عنيفة وضاربة ..

ولكن النار كانت تتألق وتزداد بريقا على مر الايام والسنين والاهداف تجد طريقها بسهولة ويسر لقد ملت الطبقة المستغلة حياتها ، وملت اللقمة

المعفرة بالتراب فهي أما ان تعيش الحياة اللائقة بالانسان وأما ان تعلنها ثورة لا تقف عند حد .. ولم تفد كل المحاولات اليائسة التي مارستها جميع القوى الحاقدة .. لقد وجدت الاهداف الارض التي تقف عليها وليس هناك من يستطيع زحزحتها حتى تتهيأ لها ان تذوق أولى ثمرات النصر الكبير النصر العظيم باطاحة أعنف جهاز بوليسي ارهابي عرفه العراق وانتن حكم رجعي عرفته سوريا ..

وبعد . أيكون هذا الايجاز الشديد تعريفا بالاهداف الثورية التي استطاعت ان تستقطب آلام الجماهير الكادحة وتستوحي مبادئها من صميم وجودها ؟ اشك في ذلك ولكني مع ذلك اشعر اني قد اشرت ولو بصورة موجزة الى دوافعها وحتمية تحقيقها لاخلص من ذلك كله الى دور الفرد المسؤول في بناء المجتمع الجديد .

والسؤال الذى يطرح الان هو هل ينبغي ان يظل الفرد على تمسكه السابق في ان يتولى أموره السياسية والاجتماعية بالعنف الذى كان عليه ام يترك الامر الى الحكومة باعتبارها ممثلة له ومنبثقة من صميمه ؟

لا شك الاجابة على هذا السؤال يتطلب الشيء الكثير من التريث اذ ليس من السهل ان يتخلى الانسان عما اعتاد عليه ، وممارسة العمل السياسى من قبل كافة طبقات الشعب طيلة سنوات كثيرة بالعنف الذى اوجبتهالظروف وطبيعة الاحداث نفسها ، كادت ان تجعل منه عادة مستحكمة ، ونحن لا نقول ذلك اعتباطا فما نراه الان من محاولات عصبية في ايجاد العزلة بين الحكومة والشعب حتى وان كان الدافع هو الاخلاص ، هي من أثر العادة المتحكمة فينا . فلقد ظل الرد العراقي ، كما بينا سابقا ، ومنذ عشرات السنين يتحمل عبء النضال الدامي ضد الحكام الطغاة والتخلف والفوضى، ورغم كذلك ان يكون مرتابا حذرا شاكا لا في رؤساء الحكومات السابقين وحسب بل وفي رؤساء وقادة الاحزاب الانتهازية والعميلة التي مارست اخطر انواع الدجل السياسي والاجتماعي من اجل غايات وصولية دنيئة .. نفوس شريرة تستثمر عواطف الشعب الخيرة لحسابها الخاص ، فليس

اذن من السهل ان نعيد الثقة كاملة الى شعب تعود ان يواجه حكومات ظالمة ورؤساء بعض احزاب يحاربهم بكل ما أوتي من قوة ، فنحن اذن أمام عمل كبير ومتشعب وخطير في الوقت نفسه ، وامامنا كذلك مهمات جد جسيمة ، فمن الشائع العام ان الهدم وتقويض شيء قائم سهل ويسير • ولكن التخطيط والبناء وتوفير الايدي النظيفة والضمائر المخلصة أمور صعبة وكبيرة وفي رأيي ، ان النظرة هذه قد لا تصلح في معظم الاوقات ، وقد لا تصلح ايضا في حالتنا الراهنة وذلك لان القضاء على رأس الاخطبوط وان كان هدفا اولا يعني القضاء على تفرعاته والاثار العميقة التي تركها •• وازاحة عصابة متفسخة او دكتاتور اهوج عن نظام متهرىء لا يعني بالضرورة ايجاد المجتمع الافضل •• فلقد وضع بين ايدينا مجتمع تسوده الفوضى والاضطراب والتخلف ، ويعيش فيه بشر انهكه القتال والجوع والشك والاهواء المتضاربة وعندي اننا نخطىء اذا كنا نظن اننا قد قوضنا بتطويحنا الزمرة السافلة ، مجتمعنا القديم بكل ماسيه وبشاعته ، وان علينا الان ان نخطط ونباشر البناء ، ذلك لاننا سنجابه أمورا كثيرة ينبغي الا تغيب عن اذهاننا ، فما من شك ان التخلف والجمود والتحجر التي ثبتتها الاحداث بمرور الزمن توجد بحكم الواقع من يعتادها ويألفها ، وهذا الاعتياد بدوره يوجب الدفاع عنها ، اذ ليس من السهل ان يتخلى انسان اعتاد الظلام والجمود عن تقاليد الفها ومفاهيم ارتضاها واز كانت متفسخة بالية • ودفاعه عنه سيكون قويا لانه بذلك يدافع عن وجوده • وبقاؤه مرهون ببقاء الجامد ، واية حركة فيه معناها زحزحته من مكانه وسلب الامتيازات التي كانت توفر له الكسل والراحة ، بالاضافة الى الدفاع المستميت الذى بدأنا نواجهه بالفعل من جهات كثيرة تعلم تماما ان بقاءها مرهون ببقاء الوضع السابق ، وان جميع أولئك الذين كانوا يتحكمون ويستغلون سيدافعون عن مصالحهم ونفوذهم وامتيازاتهم بقسوة وضراوة • وسوف لا يتخلون بسهولة عن سلطانهم الذى كانوا يفرضونه على كل شيء • فنحن حين نقول بالاشتراكية فلا يعني ذلك ان نتغنى بالكلمة او نجيد

نقشها على قطعة من القماش او الورق . وانما نعني في المجال العملي تطبيق النظام الافضل ، نعني تحرير لقمة المواطن من التحكم ، والقضاء بصورة نهائية وجذرية على جميع أولئك المتبطلين المتنفذين .

وحين نقول كذلك بالوحدة فذلك يعني تطهير الوطن العربي من الاستعمار والنفوذ الاجنبي والحكام الطغاة والقضاء على التخلف والتجزأة والاحتكارات الاستعمارية ..

وحين نقول بالحرية بمفهومها الصحيح فذلك يعني اعطاء الحق للمواطن ان يمارس حقه الطبيعي في التعبير عن ذاته النقية ومحاسبة من يجنح من المسؤولين او يخرج عن الخط .. فنحن اذن أمام معارك طويلة وضارية وقد تكون اشد قسوة من القضاء على رأس التنين . ولا يمكن للبناء ان يتم الا اذا قضينا على جميع الرواسب العفنة وازحنا عن طريقنا جميع العناصر التي تقف في طريق بناء مجتمعنا الاشتراكي ..

وحيث اننا قد خلصنا الى نتيجة اولية ، وقد كانت النقطة التي اردنا التوصل اليها، وهي الاعتياد السياسي للفرد العراقي . فالتسلسل يوجب علينا ان نجيب على السؤال الذى طرحناه سابقا ، وحيث ان هذا الاعتياد المبني على الشك والحذر والترقب حتمه نفاق الساسة المحترفين وظلم الحكام الجشعين وقساوة المجتمع فان الخطوة الطبيعية التي يجب ان نخطوها هي اعادة الثقة الى الفرد العربي واقتلاع ما ترسب فيه من شك وريبة وتنقية نفسه وذهنه من امور كثيرة اوجدتها طبيعة الاحداث التي ذكرناها سابقا .

وهذا لا يتم طبعا الا بالعمل الجدي الصادق ، فكل تلك الاثار والرواسب هي نتيجة الاقوال التي ما كانت تهدف الا الى تخدير حواسه وشعوره ومن ثم اماتة الحس فيه ..

فحين يجد الفرد ان هناك حكومة تشعر بالمسؤولية تجاهه ، وتضع يدها على الجرح الذى ينزف منه وتتبنى الاهداف التي يجاهد في تحقيقها .. فان من الطبيعي ان يعود الى نفسه يسبألها عن الدور الذى ينبغي ان يقوم به وهو يرى ان ارادته قد أصبحت حقيقة واضحة ..

لا شك ان أول شيء يعمله هو منحه الثقةلمسؤولين يثق في قدرتهم واخلاصهم ، وبمنحه الثقة هذه يكون قد ابعد عنه اكبر شاغل يتحكم فيه وازاح عنه في الوقت ذاته مسؤولية محاربة من كان يحتقره ويسلبه قوته ، ويكون قد أتاح لنفسه أيضا فرصة يعتني فيها بشؤونه الخاصة ، وشؤون اسرته وبناء ما تهدم فيه بانصرافه الى عمله والاجادة فيه • وبذلك يكون قد ساهم الى حد كبير في تطور المجتمع وانتشاله من الفوضى والاضطراب ، وذلك لانه اذا كان فساد الحياة الاجتماعية يؤثر في حياة الفرد الخاصة ، فلان شخصية الفرد اي فرديته لا تتحقق كاملة الا عند توفر ظروف اجتماعية مؤاتية اولا وتضمن لها سبيلها الحر ثانيا •• كما قال الاستاذ بديع كسم في حديث له عن مجتمعنا العربي •• فلكي نوفر للفرد الاطمئنان والهدوء ، وننتزع عقد الماضي وسموم التيارات الشعوبية ، فان علينا ان نهيء له المجتمع العادل ••

واني لاعتقد بعد هذا كله ، ان مجتمعنا الذى نعيش فيه من حيث العموم يشبه الى حد كبير المجتمع الذي وصفه ديستوفسكي في روايته العظيمة ـ الاخوة كارامازوف ـ فقال : وأعني بالانعزال ذلك الذي يسيطر على حياتنا في كل مكان وخاصة جيلنا هذا ، وانه لم يتطور تطورا تاما بعد ، فهو لم يبلغ حد التمام • ان كل واحد منا يجاهد لكي ينأى بنفسه من غيره الى ابعد حد يستطيعه ويتوق الى التنعم بأقصى ما يمكن ان تهيأه له الحياة من لذائذ غير ان جميع جهوده لا تفضى به الى التنعم بكل ما في الحياة بل الى الدمار الذاتي لانه بدلا من ان يصل الى معرفة ذاته واثبات وجودها يصبح في عزلة تامة • ان جميع ابناء البشر في عصرنا قد تناثروا شيعا متفرقة، وكلهم ينفرد بمسلكه وينأى بذاته عن الناس ويخفي ما يملكه عن غيره وينتهي به المطاف الى ان يكره غيره ويصير مكروها من غيره • انك ترى الانسان يكدس الاموال لنفسه ويقول في سره ما أقواني الان وما أمنني على نفسي ولا يدرك لحماقته انه كلما كدس المال تردى في هوة الضعف الذي يحطم الانسان تحطيما ذاتيا ، لان الانسان في مثل هذه الحالة يعتاد الاعتماد

على نفسه وحدها وينفصل عن المجموع ، انه يعود نفسه على الكفر بمساعدة الاخرين وانه يكفر بالناس والبشرية ولا ينفك يرتعد خشية فقدانه الاموال والامتيازات التي كسبها لنفسه .

ان الناس في كل مكان في هذه الايام لم يعودوا بدافع سخريتهم يفهمون ان الامن الحقيقي كامن في التماسك الاجتماعي بدلا من الجهد الفردي ، غير ان هذه الفردية الهائلة لا بد ان تبلغ نهايتها وعندها سيدرك جميع لناس بغتة مقدار الخروج على نظام الطبيعة الذى يفصلهم عن بعضهم بعضا . وسيكون ذلك الادراك ، الروح المهيمن على العصر . وسيعجب الناس كيف استطاعوا ان يمكثوا في الظلام طوال هذا الزمن ، وعندئذ ستبدو في السماوات علامة ابن الانسان ، ولكن الى ان يحين ذلك يجب علينا ان نبقى الراية خفاقة في العلاء .. ويجب على الانسان ان يجعل نفسه مثالا يحتذى ولو انفرد بذلك وحده وبدأ سلوكه كسلوك المعتوهين وبذلك ينجي ارواح الناس من وحدتها ويحضهم على ان يؤدوا من الاعمال ما يوحيه الحب الاخوي ، حتى لا تموت الفكرة العظمى .. ان كل واحد منا مسؤول أمام جميع الناس عن كل الناس وعن كل شيء ، ولا ادري كيف افسر لك ذلك . ولكني أشعر والالم يحز في نفسي ان الامر هكذا .

ونحن وقد ورثنا مجتمعنا مثقلا بالكثير من التفسخ والتخلف والفوضى . كيف نعمل على النهوض به واعادة بناءه من جديد وندعو في الوقت ذاته الى التخلى عن العمل السياسي وهناك جهود كبيرة ومعارك ضخمة يجب ان نخوضها ضد فئات شرسة مستكلبة وان ذلك لا يتم الا بتعاون وثيق بين الشعب والحكومة ؟ .

ان هناك ناحية اخرى دقيقة ومهمة ذلك اننا اذا تخلينا عن مراقبة الحكومة ونقد اعمالها نكون قد سمحنا لانفسنا باقامة عزلة جديدة ، قد تكون مختلفة من حيث الاساس عن العزلة التي كانت قائمة في عهود الظلام والارهاب ولكنها عزلة على كل حال قدتؤدي بالتالى الى اتكالية يتحطم معها ما ناضلنا في سبيله بدمائنا وأعصابنا وقلقنا .. بالاضافة الى ان التخلى

عن مراقبة الحكومة وتترك جميع الشؤون اليها تتصرف بها حسب اجتهاداتها الشخصية أمر في غاية الخطورة ويؤدي ايضا الى اقامة حكم بيوقراطي يقع في الاخطاء الفردية ، والى افساح المجال لكبرياء الحكم ان يستأثر بالسلطة والتفرد بها ! .. فما هو الشيء الذى يمنحنا فرصة اقامة التوازن بين موازرة الحكومة وحمايتها من الاخطاء ومراقبة اعمالها ، وبين افساح المجال للفرد ان يرتفع الى مستوى المسؤولية التي يتطلبها منه المجتمع .. الواقع ان الاجابة على ذلك ليست بالعسيرة ، وذلك لان النظام وتجنب الفوضى والارتجال اشياء تحتمها طبيعة الحياة نفسها .. فرعاية التنظيم النقابي اذن والشعبي ودعمه وتحريره من التسلط الفردي والتشويه هي من أهم الواجبات التي يجب ان نضعها امام اعيننا ..

ولكي يمكننا ان ندرك خطورة وقوة التنظيمات النقابية والشعبية المبنية على الاسس الصحيحة والمبادىء القويمة ، فانه يتحتم علينا ان نلقي نظرة سريعة على الادوار الرئيسية والخطيرة التي قامت بها التنظيمات النقابية والشعبية العالمية في حماية العامل والفلاح والكادح من الاستغلال والتحكم والتسلط . وفي تعبئة الرأى العام المحلى والعالمي لمحاربة الاستعمار والحكم الرجعي وفي النهوض بالمجتمع ودفعه الى مسايرة التطور الحضاري السريع .

وموضوع النقابات والتنظيمات الشعبية يجب ان يدرس دراسة جدية ، وان يعنى به عناية بالغة وذلك بشرح الغاية من اقامتها والمهام الكبيرة التي تضطلع بها وحقيقة تكوينها الى كافة طبقات الشعب ، لازالة ما ترسب في اذهان الناس عنها ومحو الصورة السوداء التي طبعتها بها العهود السابقة حين كان الحكام يتخذون من النقابات الزائفة اداة لشل حركة العمال والفلاحين وتزييف مطاليبهم وتشويه ارادتهم ، خصوصا واننا مصممون على بناء مجتمع تتكافأ فيه الفرص للجميع وتوزع فيه الثروات بصورة عادلة ، ولا يمكن لمجتمع ان ينهض او يتقدم الا اذا ارتكز على تنظيمات شعبية ونقابات حرة بعيدة عن الاهواء الفردية ، تتولى امور الفلاحين والعمال

كافة وكافة طبقات الشعب بتنظيم أمورهم والدفاع عن قضاياهم وتأمين حقوقهم المشروعة .

ونحن حين ندعو الى التنظيم الصحيح فلايماننا الراسخ بالمهام الجسيمة التي يمكن ان تقوم بها النقابات فهي بالاضافة الى كونها اداة نافعة جدا لمحاربة التخلف والاستعمار ولحماية العامل والمواطن من الاستغلال والبطالة والجوع فانها في الوقت نفسه تنقذ الفرد من الجهود الفردية غير المثمرة والاعمال الارتجالية .

فالتنظيم النقابي والشعبي اذن هو العمل المثمر الذى يجب ان نحتضنه بقوة ونعمل على تقويمه ودعمه .. وبعد فلست ادري اذا كنت قد استطعت ان اعبر عما كان يدور في نفسي وانا ارى في كل مكان .. في المقهى في الدائرة ، في الشارع ، في الكوخ ، في القصر ، هذه العادة المتحكمة فينا ، ممارسة العمل السياسي الفردي وهذا التشكيك العاطفي الحاد في اهداف الثورة ومبادئها وفي اكثر ما تقوم به الحكومة حتى وان كان سليما ومعبرا عن الام الجماهير وآمالها في الحياة الحرة الكريمة .

ولقد قلت في كلمة سابقة ، ان بتر الاعضاء الفاسدة واستئصال الجذور العفنة وتوفير اللقمة للافواه الجائعة باقامة صناعة حديثة وايجاد العمل لكافة المواطنين وتطوير الزراعة الحديثة لخير الفلاح ورفاهيته واحتضان القابليات الفكرية والعلمية أمور قد تكون صعبة وجسيمة ولكنها في الوقت ذاته سهلة اذا تظافرت جميع القوى المخلصة لتحقيقها اما البناء الداخلى ايجاد انسان نظيف لا يسيره الحقد الرخيص ولا تعبث به الاهواء الهوجاء ولا تتقاذفه النزوات العابرة ، انسان يشعر بمسؤوليته في الحياة وبمسؤوليته تجاه نفسه ووطنه وأمته ، انسان حي يتصرف بحرية ويعمل بوعي وارادة .. ان ايجاد مثل هذا الانسان يحتاج الى عمل من الداخل .

والا ، اذا ظل ألامر هكذا ، نجتر احزاننا لم تبق اسبابها وان ناكل نفوسنا في الصالونات والشوارع والمقاهي ، أن تكون الفوضى هي السلطان المهيمن علينا .

أن نظل هكذا غارقين في مثل هذا الخدر السطحي لا ننهض لعمل ولا نقوم لبناء ، فان الامر سينتهي بنا في نهاية المطاف الى الاطاحة بكل ما نملك من خصب ونماء والى تشاؤم كبير حتى بالنسبة الى النوار انفسهم ..

لقد قاسينا جميعا مرارة القلق والعذاب وعانينا الارق والسهر الطويل. وجابهنا جميعا بقوة وحزم حقد الشعوبيين وبشاعة الارهاب والتنكيل . شاهدنا بأم اعيننا اخواننا يسحلون ويعلقون على اعمدة النور .. ولقد ملئت اكفنا دماء وصدورنا قيحا .. ولقد صبيناه جحيما على من كان يقهقه من جراحنا ، فليس من الرجولة ان نجهز على وليد وهو لما ير النور بعد..

قد تكون هناك اخطاء ، وقد تكون هناك اعمال عاطفية . هذا صحيح ولكنها لا تغتفر ابدا لمن يريد ان يتخذ منها منطلقا للهدم والتخريب ..

ان من لا يعمل هو وحده الذى لا يخطأ .

انها ليست كلمات عاطفة ، هذا الذى اقوله ولكنه الالم الذى يقطع الامعاء .. الدم الذى ينزف منا بغزارة .. منك ، مني ، من شهدائنا ..

نظافة اللسان .. نظافة الضمير ، نظافة القلب ، نظافة العمل نحتاجها الان في هذه الساعة .. في هذه اللحظة .

الاصل في الانسان ان يكون محبا لاخيه لا كارها له .. مخلصا لنفسه لا عدوا لها . محبا لامته لا وحشا كاسرا عليها ..

كم نشعر بسعادة عظمى حين نواجه الشمس ونقول بكبرياء ورجولة . حقا انها الشمس .. الشمس السرمدية .. وليست فوهة دخان اسود ..

الرجولة تقضي ان نكون شرفاء ، نعمل في النهار وفي ضوء الشمس .. لا ان ننتظر حتى يحين الظلام ويختفي القمر ونتقدم كالقرود الممسوخة وفي يدنا خنجر ملوث بالعار والدناءة ..

المحتوى

مأساة الاديب	١
ذيل الحمـــار	١٤
الاستنتاجات الخاطئة في الاغلاط الشائعـة	٢٢
النقاط والفواصل .. في الشـــعر الحديث	٣٠
انهيار الخلق الانســـاني في الاديب المزيف	٤١
الانســـانية في كل شيء	٤٧
القمح والعوسج	٥٢
حـول الادب الشـــعبي	٦٤
الشـوق واللقاء	٧١
الحـي اللاتيني	٧٧
تعـريق « ايام زمـان »	٨٢
رأي حول مسرحية فوانيس	٨٧
مسؤولية الفرد في المجتمع	٩١

وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

صدر عن مديرية التاليف والترجمة والنشر المطبوعات التاليـة في سلسلة الكتب الحديثة :

	فلس	دينار
١ ـ رائد الموسيقى العربية : تاليف عبدالحميد العلوجي	٢٠٠	ـ
٢ ـ معجم الموسيقى العربية : تاليف حسين علي محفوظ	٢٠٠	ـ
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية : تاليف ميخائيل خليل‌الله ويردى	٥٠	ـ
٤ ـ الحرية : تاليف ابراهيم الخال	١٠٠	ـ
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٧ ـ النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي : تاليف حامد مصطفى	٣٥٠	ـ
٨ ـ علي محمود طه ... الشاعر والانسان : تاليف أنور المعداوي	٢٠٠	ـ
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزي : تاليف عبدالحميد العلوجي	٢٥٠	ـ
١٠ـ أبو تمام الطائي : تاليف خضر الطائي	١٥٠	ـ
١١ـ من شعرائنا المنسيين : تاليف عبدالله الجبوري	٢٠٠	ـ
١٢ـ محمد كرد علي : تاليف جمال الدين الآلوسي	٣٠٠	ـ
١٣ـ ادباء المؤتمر : تاليف عبدالرزاق الهلالي	٢٠٠	ـ
١٤ـ بدر شاكر السياب : تاليف عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
١٥ـ الواقعية في الادب : تاليف عباس خضر	٢٠٠	ـ
١٦ـ شعراء الواحدة : تاليف نعمان ماهر الكنعاني	١٥٠	ـ

١٧ـ لقاء عند بوابة مندلبوم : تأليف احمد فوري	٢٠٠	ـ
١٨ـ خسرناها معركة .. فلنربحها حربا : تأليف فيصل حسون	٢٠٠	ـ
١٩ـ عطر وحبر : تأليف عبدالحميد العلوجي	٣٥٠	ـ
٢٠ـ الدبلوماسية في النظرية والتطبيق : تأليف فاضل زكي محمد .	٣٠٠	ـ
٢١ـ من عيون الشعر : مختارات ناجي القشطيني	٤٥٠	ـ
٢٢ـ مع الكتب وعليها : تأليف عبدالوهاب الامين	٢٠٠	ـ
٢٣ـ مقال في الشعر العراقي الحديث : تأليف عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
٢٤ـ مع الاعلام : تأليف جميل الجبوري	٣٠٠	ـ
٢٥ـ محاكمات تاريخية : تأليف مدحة الجادر	١٢٠	ـ
٢٦ـ سنتان في المغرب : تأليف جابر الفؤادي	٢٠٠	ـ
٢٧ـ دراسات تأملية : تأليف شاكر حسن آل سعيد	١٧٥	ـ
٢٨ـ العقاد وتطوره الفكري : تأليف عبدالحي دياب	٢٨٠	ـ